الشيخ محمد أبو زهرة

مقارنات الأديان

الديانات القديمة

معهد الدراسات الإسلامية

الافتتاحيـــة

بسم الله الرحمن الرحيم

إن الحمد لله نحمده ونستعينه ، ونستغفره ، ونتوب إليه ، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ، وسيئات أعمالنا ، من يهد الله فلا مضل له ، ومن يضلل فلا هادى له ، ونصلى ونسلم على سيدنا محمد المبعوث رحمة للعالمين ، وعلى آله وصحبه أجمعين .

أما بعد فقـد نشأت مسلما فى قوم مسلمين ، وآمنت مـذ نشأت بالله الواحد الأحد الفرد الصمد ، ولكنى كنت مشغوفا منذ نعومة أظافرى أن أعرف العقائد التى تسود الفكر الإنسانى ، فى شرق الأرض وغربها لأعرف مكان العقيدة الإسلامية بينها مع إيمانى بأن القرآن هو الحق الذى لا ريب فيه ، وما جاء به محمد صلى الله تعالى عليه وسلم هو الصلاح الذى لا يرنقه فساد.

ولقد درست ما وسعنى الوقت ، والتمكن من الإطلاع ، فقرأت ما جاء فى الديانات القديمة ، وما عليه الديانات السماوية بعد أن حالت وتغيرت ، لأعرف ما فيها من قضايا ، ما يتفق مع حكم العقل ، وتستسيغه الأفكار ، وما لا يقبله العقـــل ، بل يلفظه ، كما يلفظ اللسان مسيخ الطعام ، وما تمجه الأذواق .

ولقد انتهيت كما ابتدأت مؤمنا بالقرآن وعقيدته ، والنبى وشريعته ،

لأن العقيدة الإسلامية فيها تنزيه العقول من الأوهام ، وتطهيرها من الأرجاس والشريعة الإسلامية فيها صلاح الإنسانية .

ولقد ألقيت هذا الذى وجدته فى الديانات القديمة دروسا فى كلية أصول الدين ، ورأى معهد الدراسة الإسلامية أن ألقيه دروساً فيه ، وهذه خلاصة الدروس التى ألقيتها على طلبة ذلك المعهد المبارك إن شاء الله تعالى .

وقد قسمت الدراسة إلى قسمين ، قسم الديانات القديمة الباقى بعضها إلى اليوم ، وقد درست فيه المصرية القديمة ، والبرهمية ، والبوذية ، والكونفشيوسية ، وفى القسم الثانى النصرانية بوصفها الحاضر ، وقولها ، ومجامعها وفرقها والله سبحانه وتعالى هو الموفق ، والهادى إلى سواء السبيل ولولا توفيقه ما أنجزنا عملا .

١٥ من ذى القعدة سنة ١٣٨٥
٧ من مارس سنة ١٩٦٥

محمد أبو زهرة

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

الديانة المصرية القديمة

١ - أول ما يلاحظه الدارس لديانات العالم القديم أن أشد الأمم تديناً المصريون القدماء، حتى لقد قال شيخ المؤرخين هيرودوت: «إن المصريين أشد البشر تديناً، ولا يعرف شعب بلغ فى التدين درجتهم فيه، فإن صورهم بجملتها تمثل أناساً يصلون أمام إله، وكتبهم فى الجملة أسفار عبادة ونسك».

وذلك كلام حق - فتلك الآثار الباقية التى تحكى لنا حياة المصريين جلها - قام على أساس من التدين والاعتقاد، ولولا انبعاث هذا الاعتقاد فى النفس ما قامت تلك الأهرام، ولا نصبت تلك الأحجار، ولا شيدت هاتيك التماثيل التى لا تزال تسترعى الأنظار بجمالها وزخرفها وروعتها، وقوة بنيانها، ومغالبتها الزمان، وهى قائمة الأركان ثابتة العمد، ينحدر عنها الزمان، ولا يزيدها القدم إلا روعة وبهاء، بل لولا الاعتقاد المستكن فى النفس بحياة الأرواح ووجودها فى غلاف من الجسم لا يبلى، ما اخترعوا تحنيط الأجسام الذى أبقى طائفة من الأجسام البشرية غبرت عليها السنون وهى لا تزال متماسكة لم تتحلل، ولم تتناثر أشلاؤها.

٢ - ولقد كانت شدة تدينهم سبباً فى أن دخل الدين عنصراً عاملا قوياً فى كل أعمالهم الخاصة والعامة، فالدين مسيطر حتى فى الكتابة فى الحاجات

الخاصة ، وفى الإرشادات الصحية ، وفى أوامر الشرطة ، وسلطان الحكم .
ولقد تعددت بسبب ذلك الكائنات المقدسة ، والأشياء التى يعتبر احترامها من احترامهم آلهتهم ، أو هى بذاتها تبلغ رتبة الآلهة ، وتصل إلى مكانها فى التقديس والعبادة ، وإن فلسفة المصريين نفسها ليست إلا صوراً للعقيدة وإعمالا للفكر لكى يصل إلى ما يؤيدها ويجعلها منسجمة مع قضايا العقل ، أو على الأقل لكى يجعل القضايا الدينية متناسبة ، يتماسك بعضها مع بعض ، ولا تنافر بين أجزائها ، ويضعها فى وحدة منطقية تجمعها ، وتضم متفرقها فى إطار فكرى واحد .

٣ ـ ولقد شده بعض العلماء بحال التدين هذه التى شملت المصريين وتغلغلت فى كل شىء عندهم إلى درجة تعاظم لديه أن يكونوا غير موحدين مع تلك القوة فى التدين والتشدد فيه ، فزعم لهذا أنهم كانوا فى الجملة موحدين . وممن وقع فى هذا العلامة ماسبيرو ، فقد قال : « وكان إله المصريين واحداً فرداً ، كاملا ، عالماً ، بصيراً ، لا يدرك بالحس ، قائماً بنفسه ، حياً ، له الملك فى السموات والأرض ، لا يحتويه شىء ، فهو أب الآباء ، وأم الأمهات ، لا يفنى ، ولا يغيب . يملأ الدنيا ، ليس كمثله شىء ، ويوجد فى كل مكان » .

وهذا كلام ليس من الحق فى شىء ؛ لأن المصريين لم يكونوا موحدين ، ولذا أدرك هذا المؤلف خطأه ، فكتب فى طبعة ثانية من كتابه ما نصه : « تدلنا الآثار على أنه كان لكل من الرهبان منذ أزمان الأسرة الأولى آلهته الخاصة وهذه الآلهة مقسمة إلى ثلاثة فرق متباينة الأصول : آلهة الموتى ، وآلهة العناصر ، والآلهة الشمسية » فهذا الكلام يدل على أنه رجع عن رأيه القديم ، أو على الأقل هو تقييد لرأيه القديم ، ، ومنع له من الإطلاق .

٤ ـ وفى الحق أن الدارس الذى يريد أن يجافى الشطط يجب عليه ألا يحكم بأن مدنية مكثت خمسة آلاف سنة ، وكان أهلها على ديانة واحدة

غير سماوية ، لم تسر عليها قوانين التحول والتدرج ، والانتقال من حال إلى حال ، ومن صورة إلى صورة ، ومن غاية إلى غاية ؛ لذلك لا نستطيع أن نقول إن ديانة المصريين مكثت أكثر من أربعين قرناً لم يعرها التغيير والتبديل ، وإنهم كانوا على عقيدة واحدة طوال تلك السنين ؛ إن ذلك ضد طبائع الأمم ، وضد قانون التحول والانتقال .

فلا بد إذن من أن نقول إن المصريين كانت دياناتهم تتغير ، وعقائدهم تتبدل تبعاً لسنة الله فى الأمم والكون ما دامت دياناتهم لم تعتمد على أصل سماوى ، بل إن الديانات السماوية نفسها قبل الإسلام كان يعروها التحريف والتغيير والتبديل ، وتفهم على غير وجهها عند ما يكون الناس على فترة من الرسل .

٥ ـ والواقع أن عقائد المصريين كانت تتخالف بتخالف الأقاليم نفسها ، وكانت آلهتهم محلية ، فكل مدينة كانت لها آلهتها . فكان موطن أوزيريس فى أبيدوس ، وفتاح فى ممفيس ، وأمون فى طيبة ، وهوروس فى ادفو ، وهاتور فى دندرة ، الخ ... ومكانة الإله تتبع مكانة المدينة التى يعبد فيها ، وللآلهة مراتب بعضها فوق بعض ، فكانت بمثابة سلسلة مراتب إلهية تتبع مراتب المقاطعات السياسية .

ومن هذا يفهم أنه لم يعرف المصريون حتى التوحيد الإقليمى بأن يجتمعوا على آلهة واحدة فى كل إقليم ويتفقوا عليهم مهما تتباين جهات إقاماتهم ، بل كانت آلهتهم محلية ، كل إقليم له آلهة خاصة به .

٦ ـ بيد أنه يجب علينا أن نعتقد أن دعوات إلى التوحيد الخالص بعبادة إله واحد فرد صمد لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد ـ قد توردت على العقل المصرى . وبعيد أن ننفى نفياً تاماً عن المصريين فى مدى

خمسة آلاف سنة ازدهرت فيها حضارتهم ونمت ـ أن تكون قد وردت عليهم عقيدة التوحيد بدعوة من رسول مبين .

ولقد ورد فى القرآن الكريم ما يفيد أن يوسف عليه السلام ، وهو نبي كريم من أنبياء الله دعاهم إلى عبادة الواحد القهار ، فلقد ورد فى سورة يوسف ما حكاه الله عنه من كلام لصاحبي السجن فقد قال حاكياً عنه : « إنى تركت ملة قوم لا يؤمنون بالله وهم بالآخرة هم كافرون . واتبعت ملة آبائى إبراهيم وإسحق ويعقوب ، ما كان لنا أن نشرك بالله من شيء ذلك من فضل الله علينا وعلى الناس ، ولكن أكثر الناس لا يشكرون . ياصاحبي السجن أأرباب متفرقون خير أم الله الواحد القهار . ما تعبدون من دونه إلا أسماء سميتموها أنتم وآباؤكم ما أنزل الله بها من سلطان . إن الحكم إلا لله أمر ألا تعبدوا إلا إياه ، ذلك الدين القيم ، ولكن أكثر الناس لا يعلمون » .

من هذا الخبر الذى لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، نحكم مستيقنين أن دعوة إلى التوحيد قد وردت للمصريين ، فهذا يوسف وهو فى السجن يدعو صاحبيه إلى الدين القيم ، وهجر عبادة ما سموه آلهة ، وإن هى إلا أسماء سموها وإن ما يزعم لها من ألوهية ما هو إلا نحلة ينحلونها إياها ، وأوصاف يصفونها من غير أن تنطبق على الموصوف فى شيء ، فألوهيتها وصف يذكر وليست حقيقة تعرف .

ولقد مكن الله ليوسف فى أرض مصر ، واستولى على خزائن الدولة وصار ذا سلطان مبين فيها ، وهو رسول من رب العالمين ، فلا بد أن يكون قد دعاهم جهرة إلى الدين القيم ، ولا بد أن يكون قد أجابه منهم أناس ، ونكص عن الإجابة غيرهم .

ومهما يكن من شيء فقد كانت دعوة يوسف إلى التوحيد لها أثرها ،

ولكن المصريين ألفوا عبادة ما أنتجه خيالهم من ألوهية زعموها لبعض الأشياء والحيوان ، فلما جاءتهم دعوة إلى التوحيد صريحة قوية بما تستمده من بينات عقلية ، وأدلة منطقية ، تستقيم مع قضايا الفكر . آمن من آمن ، ومن لم يكن نافذ البصيرة ، قوى المدارك ، وقع فى حيرة بين قديم قد ألفه وتغلغل فى مكنون قلبه واستولى على أهوائه ومشاعره ، وجديد قد عرفه ورأى فيه استقامة فى الفكرة ، وقوة فى الاستدلال ، فكان فى شك ومرية .

ويظهر أن صدى دعوة يوسف استمر أجيالا يعمل فى النفس المصرية ترى نور الحق منبعثاً فيما أثر عن يوسف ، والنفس قد استهواها ما أثر عن الآباء والأجداد . ولذا قال تعالى حاكياً عن لسان مؤمن آل فرعون عندما حثهم على عدم قتل موسى : « ولقد جاءكم يوسف من قبل بالبينات فما زلتم فى شك مما جاءكم به ، حتى إذا هلك قلتم لن يبعث الله من بعده رسولا ، كذلك يضل الله من هو مسرف مرتاب » فذلك الاضطراب بين القديم المألوف ، والجديد الحق المعروف ، هو الشك الذى استمروا فيه بعد يوسف عليه السلام ، وجاءت حكايته على لسان مؤمن آل فرعون .

٧ - لم يكن المصريون إذن قد خلوا فى كل عصورهم من دعوات إلى التوحيد نعلم منها يقيناً دعوة يوسف عليه السلام ، ودعوة موسى عليه السلام ثم إن الهكسوس الذين جاءوا إلى مصر ، وحكموها أمداً غير قصير لا يمكن أن يكون مجيئهم قد خلا من دعوات دينية ، وخصوصاً أنه ورد فى بعض الآثار أن إبرهيم عليه السلام قد زار مصر ، فلا بد أن يكون التوحيد قد كان موضع دعاية له ، وإن لم يكن موضع إجابة منهم .

وإن احتكاك المصريين بالآسيويين فى الحروب الدائبة المستمرة لا بد أن يكون هو أيضاً قد أطلع الغزاة والفاتحين على ما فى آسيا من ديانات وآثار النبيين من شرائع وعقائد وأحكام ، وكل ذلك لا بد أن ينال شيئاً من النفس المصرية ، وإن لم ينل القلوب ، ويستولى عليها استيلاء تاماً .

ولكن تلك الأغذية الدينية ، وتلك الدعوات التوحيدية التي كانت تجيء إليهم الحقبة بعد الحقبة لم ترفع المصريين إلى مرتبة الموحدين ، بل يسود عقائدهم التعدد فى جملة تاريخهم ، بل إنهم لم يصلوا إلى التوحيد المحلى بأن يجمع المصريون على آلهة واحدة ، بل تعددت الآلهة بتعدد الأقاليم كما بينا .

٨ - ولكن يظهر أن الكهنة- وهم الفلاسفة أيضاً - كانوا يجتهدون فى أن يجمعوا المصريين على آلهة واحدة ، ولذلك كانوا ينشرون عقيدة تعتبر هى العقيدة الرسمية للدولة ، وإن انحرف الشعب عنها انحرافاً يختلف فى قلته وكثرته باختلاف الأقاليم المصرية ، ولم تكن تلك العقيدة متحدة فى كل أدوار مصر القديمة بل حالت واعتراها قانون التحول ، فتغيرت من دور إلى دور . ولنذكر خلاصتها ، وما عراها من تغير .

تعتمد العقيدة الرسمية عند قدماء المصريين على أسطورة قديمة ترجع إلى ما قبل التاريخ فى نسبتها ، وهى أن إله الإنبات والخصوبة أو إله النيل واسمه أوزيريس قد عمل على تكوين مملكة إلهية مكونة من أخته وزوجته إلهة الحكمة والتشريع والسحر واسمها إيزيس ، ووزيره إله التدبير والعلم واسمه توت وغيرهم من الآلهة . ولكن أخا أوزيريس واسمه سيت وهو إله الشر والقحط نفس على أخيه ما ناله من مكانة وإجلال ودفعه الحقد إلى إيذائه ، فغدر به ، واحتال عليه حتى وضعه فى تابوت ثم أقفله عليه وألقى به فى اليم ، فلما تفقدته زوجته ولم تجده أخذت تنقب عنه حتى عثرت عليه ولكن قبل أن تتمكن من فتح التابوت هاجمها سيت وأخذ التابوت منها عنوة ، ومزق أخاه اثنين وسبعين شلوا بعدد مقاطعات مصر إذ ذاك ، ونثر هذه الأجزاء فى المقاطعات ، فى كل مقاطعة شلو ، ولكن مع ذلك لم تستيئس زوجته ، بل ألقى الوفاء فى قلبها شجاعة لا يأس معها ، وبجد ودأب جمعت الأشلاء من كل مكان وألقت كل جزء فى موضعه من الجسم

وقرأت عليه بعضاً من التعاويذ والرقى السحرية ، فعاد إلى الحياة ، ولكنها حياة قصيرة ، كانت بقدر ما أنسل ابنه (هوروس) ثم غادر هذه الحياة إلى الحياة الأخرى ليقوم بالحساب والميزان لأهل الدنيا .

وهنا تكون المعركة بين هوروس وعمه سيت ، إذ ينكر نسب ابن أخيه ويدعى أنه الوريث الوحيد لعرش أخيه فى المملكة الإلهية ، ويرفع فى سبيل ذلك دعوى إلى محكمة الآلهة ، فتهب إيزيس مدافعة عن ابنها وشرفها فتقضى المحكمة بثبوت النسب بشهادة توت ، ولكن النزاع لاينتهى بذلك ؛ بل يأخذ كل يعمل على إفساد أعمال الآخر فى الكون . وتكون دائرة هوروس فى الإنتاج والعمارة ، ودائرة سيت فى الإفساد والتدمير .

وصار من آثار ذلك التناحر ما كان بين الوجه القبلى والوجه البحرى من حروب مستمرة ، بل قد صار كل رئيس من رئيسى الوجه القبلى والوجه البحرى أحد هذين الإلهين .

واستمرت الحال على ذلك حتى جاء مينا الأول ، فجمع فى سلطانه حكم مصر العليا والسفلى ، وأعلن أن الإلهين قد حلا فى جسده ، ومن ثم ابتدأت عقيدة تأليه الملك ، أو حلول روح الإله فيه .

ولقد أخذت الفلسفة الدينية من ذلك الحين تعمل على التوفيق بين خلود الألوهية ، وفناء الجثمانية ، لأن فرعون يموت كما يموت سائر الناس ، والإله باق . فكيف يحل الباقى فى الفانى ! ! ثم كيف يموت من ارتفع إلى مرتبة الألوهية ! ! إن الحس يؤكد الموت ، وعقائدهم تنافيه .

ولقد دفعتهم الرغبة الملحة فى التوفيق بين ما يحسون وما يعتقدون إلى أن قالوا : إن روح الإله هوروس ذات ثلاث شعب أولاها الروح الدنيا ، وهى التى تحل فى فرعون الزمان ، ثم تنتقل إلى من يليه ، وتفيض عليه بقدسيتها ، والثانية الروح العليا الحاكمة فى السموات والأرضين ، والثالثة

روح تبقى فى جسد فرعون الميت ، وتقوم بالنصح لفرعون الحى . ولا تبقى هذه الروح إلا إذا بقى الجسم متماسكا ، ولذا أعملوا الحيلة لذلك ، وبنوا الأهرام وشيدوها لتكون حفاظاً للجسم .

٩ - ولم يستمر فرعون موضع القداسة لحلول هوروس خليفة أوزيريس فى الألوهية ، بل ارتقى وصار يحل فيه رع كبير الآلهة ، وعلا عن سلطان أوزيريس عند ما حالت العقيدة من ثالوث إلى تاسوع ؛ وذلك لأن العقيدة المصرية كانت قائمة على تقديس ثالوث مكون من أوزيريس ، الآب ، وهوروس الابن ، وإيزيس الأم ، والجميع يرجع إلى واحد ، ولكن لم تستمر العقيدة على هذا التثليث ، بل انتقلت إلى تقديس تاسوع بدل ثالوث ؛ وذلك التاسوع يرجع إلى قوى الطبيعة الظاهرة المؤثرة فى تحولات الأشياء ظاهراً . فقد فرضوا أن العنصر الأول الذى تكونت منه الأشياء هو الماء ، وأول ما ظهر من الماء هو رع (الشمس) ومنه ظهر الهواء (سرا) والفراغ (تيفينه) ومن اجتماعهما كانت الأرض (جيب) والسماء (توت) ومن اجتماع الأخيرين نشأ النيل (أوزيريس) والأرض الخصبة (إيزيس) والصحراء (سيت) والأرض القاحلة (نيفتيس) .

وقد أعطى المصريون هذه الأشياء صفة الألوهية وأضفوا عليها صفات التقديس ، ولم تكن هذه هى الآلهة وحدها ، بل هناك رب الأرباب ، وأطلقوا عليه اسم (توم) وهناك آلهة أخرى منها « مآت » ابنة رع (وهى إلهة الحقيقة والعدل) .

ولقد قال بعض العلماء : إن هذا التاسوع أفكار فلسفية علمية أراد الفلاسفة أن يبينوها للعامة فلم يجدوا طريقاً لتثبيتها فى قلوبهم إلا أن يرفعوها إلى مرتبة الآلهة . وعلى أية حال قد وصلت تلك الأشياء إلى درجة الآلهة فى نظرهم سواء أكان ذلك بتقديس المصريين من تلقاء أنفسهم أم بتلقين

الفلاسفة والعلماء . والحق أن الفلسفة المصرية قد امتزجت بالدين امتزاجاً شديداً ، فكان الكاهن هو الفيلسوف والعالم ، وإذا كان الفلاسفة هم الكهان ، فكل مايقولون دين لا فلسفة ماداموا يدعون العامة إليه ، وربما كانوا يضيفون معلومات فلسفية إلى الدين ويدعون الناس إليها على أنها دين ، فإذا اعتنقها الناس ، فهي جزء من عقائدهم على هذا الأصل .

كل ما بيناه كان هو المذهب الرسمي ، أما عقائد العامة فكانت مختلفة باختلاف الأقاليم على النحو الذي بيناه .

١٠ - تقديس الحيوان عند قدماء المصريين :

اتفق المؤرخون على أن المصريين كانوا يعبدون الحيوان وتضافرت على ذلك الأخبار وبلغت حداً استفاضت معه ؛ فلا يستطيع أحد أن ينكرها . ولقد كانوا يتحمسون فى عبادتهم للحيوان إلى حد لا يحفلون معه بقوى مهما تكن رهبته أن يمس ذلك الحيوان بسوء .

يروى أنه فى إبان سلطان الرومان على مصر قتل أحدهم قطاً . وقد كان موضع عبادة فى ذاك الوقت ، فهاجم القاتل جمهور من الشعب وفتكوا به ولم ينجه من صاب نقمتهم أن أرسل الملك إليهم شفاعته فيه على لسان أحد قضاته فما قبلوا شفاعته ، وهم الذين اشتهروا أمام الرومان بالضراعة .

ويحكى بعض المؤرخين أنه رأى فى أثناء زيارته لمصر فى خوالى عصورها تمساحاً مقدساً فى طيبة فيقول : « كان هذا الحيوان رابضاً على سيف غدير فاقترب منه الكهنة ، وتقدم اثنان ففتحا فاه وحشاه ثالث حلوى وسمكاً مشوياً وعسلا مصفى » .

ولقد قال أحد الكتاب فى هذه العبادة : « على هياكل المعابد سجف منسوجة بالحرير فإذا ما تقدمت إلى نهاية المعبد لترى التمثال تقدم إليك كاهن فى سكينة ووقار ، وهو يرتل مزاميره ، فيزيح قليلا من الستار ليريك

الإله ، فلا ترى إلا قطاً ، أو تمساحاً ، أو ثعباناً ، أو حيواناً مؤذياً ، فكأن إله المصريين دابة ملونة على بساط أرجوانى ، ويحكى هيرودوت أنه شاهد نيراناً قد شبت فى مصر ، فوجد السكان جميعاً قد اتجهوا إلى إنقاذ القطط قبل أن يتجهوا إلى إطفاء النيران ، وذلك لكى لا يمس معبودهم بأى أذى .

١١ ـ وقد اختلفت عبارات المؤرخين فى الأمر الذى حفز المصريين إلى عبادة الحيوان .

(أ) فيجىء فى عبارات بعضهم أن السبب هو أن المصريين الأقدمين قبل أن تتوحد كلمتهم ، ويخضعوا لسلطان واحد كانت قبائلهم تتنازع وتتناحر فينتصرون ، وينهزمون ، فيرمز المنتصرون لقراهم ببعض الحيوانات القوية ولقرى خصومهم ببعض الحيوانات الضعيفة ، وقد استمرت تلك الرموز دالة على ما تشير إليه ردحاً طويلا من الزمان ، ثم نسى الناس المعنى وبقى الرمز ، وصارت أسماء تلك الحيوانات باقية فى الأذهان مقرونة بالتقديس محاطة بهالة من التأليه ، فقدست بلا فرق بين قوى وضعيف ، ومن غير نظر إلى المعنى الذى كانت ترمز إليه ، والفكرة التى كانت مقصودة منها وصارت عبادتها على أنها آلهة ، لا أنها رموز لانتصار أو انهزام .

(ب) ويجىء فى عبارات بعض المؤرخين أن الحيوانات ما كانت تعبد لأنها آلهة ولكن لأنها رمز للآلهة ، فكان لكل إله من آلهتهم رمز خاص به ، فيرمز لتوت برأس أبى قردان ، ويرمز لآمون إله طيبة برأس كبش ، وفتاح برأس عجل ، ولما كان لكل مكان إلهه فله أيضاً حيوانه المقدس ؛ وقد يكون الحيوان مقدساً فى مكان بينما هو غير مقدس فى غيره . فالتمساح الذى كان يعبد فى طيبة مثلا كان يطارد ويقتل فى غيرها » .

ولما سرت فكرة تقديس الحيوان إلى العامة لم يعبدوه على أنه رمز للآلهة بل عبدوه على أنه من الآلهة نفسها ، وبذلك صار عندهم فى صف الآلهة ، وليس رمزاً لها .

(ﺟ) ويرجح بعض المؤرخين أن علماء الدين من المصريين الأقدمين كانوا يعتقدون حلول الآلهة فى الأجسام ؛ بل أنهم ما كانوا يتصورون عالماً روحانياً مجرداً من الجثمانية ، فالروح لابد لها من جثمان تحل فيه ، حتى انها عند الموت لا تفارق الجسم إلا على عودة سريعة إليه ، وإذا كان ذلك شأن الأرواح فهو أيضاً شأن الآلهة ، لا بد من مأوى تأوى إليه فى الحياة ، وجسم تحل فيه . وقد أعملوا فكرهم فى الأحياء التى عساها تكون موضع حلول الآلهة ، فزعموها فى الأحياء التى تتصل بالخصب والإنتاج ، والبذر والإثمار ، وأحلوها فى غيرها لميزة لاحظوها أو توهموها . فأحلوا آلهتهم أحياناً فى ثور ، وأحياناً فى قط ، وأحياناً فى غيرهما . وصاروا يعبدون هذه الحيوانات على أنها أوعية قد حلت فيها الآلهة وليست هى الآلهة . فقوام عبادة الحيوان على هذا الرأى الراجح ، هو اعتقاد الحلول عند قدماء المصريين .

والعبادة كانت مقصورة على واحد من آحاد الحيوان المقدس يختار لصفات تلاحظ فيه . فمثلا فى عبادة الثور ما كانت كل آحاده تعبد ، بل يختار واحد منها لعلامات فى جسمه كان يعرفها الكهنة بملاحظات مبهمة تتناول وضع الشعرات وضعاً يمثل الأشكال المطلوبة ولو بتمثيل بعيد على نحو ما تمثل النجوم فى السماء الدب أو القيثارة .

ويقول هيرودوت فى وصف العجل الذى قد وافقت أوصافه العلامات عند الكهنة : « أبيس هذا عجل شاب لا تستطيع أمه أن تلد غيره ، ويقول المصريون أن بريقاً يهبط من السماء عليها ، وأن هذا البريق يلدبها بأنه الإله أبيس . ويعرف هذا العجل ببعض علامات ، وشعره أسود ، وفى جبهته غرة مثلثة بيضاء ، وعلى ظهره صورة نسر ، وتحت لسانه صورة عجل وشعر ذيله مضاعف » .

وإذا مات الحيوان المختار للحلول عم الحزن مصر ، على أن الكهنة

لا يتركونه يعيش أكثر من خمس وعشرين سنة لأنه إذا بلغها أغرقوه فى عين مخصصة للشمس .

ولقد انتقلت بعد ذلك عقيدة المصريين من اختصاص حيوان من بين آحاد نوعه بحلول الآلهة فيه إلى اعتقادهم أن الآلهة تحل فى النوع كله فكل البقر مقدس ، وكل القطط مقدسة ، وهكذا جنس كل حيوان نال مرتبة التقديس بحلول الآلهة فيه ، ولقد دفعتهم عقيدة الحلول هذه إلى اعتقاد أن الحيوانات المقدسة أوتيت علم الغيب ، والتعريف بالمستقبل ، ولهم فى ذلك أساطير وقصص جاد ببعضها الخيال الخصب وألبس بعضها لبوس الحقيقة والصدق الوهم الذى يرين على النفس ، فلا يجعلها ترى الأشياء على حقيقتها .

ومهما يكن من شىء فالمصريون كانوا يعبدون الحيوان ، ولا يمكن أن يكون سبب منطقى قد دفعهم إلى ذلك ، بل لابد أن يكون الدافع وهماً باطلا وخيالا فاسداً ، لأن ذلك الاعتقاد باطل فلا يمكن أن يوصل إليه إلا نظر منحرف وفكر غير قويم ، ومقـــدمات لا تمت إلى المنطق بنسب ، ولا يربطها به سبب .

١٢ ـ الحياة الآخرة والنفس :

لعل أروع ما فى العقيدة المصرية القديمة ، اعتقادهم الحياة الآخرة ، وأنها الباقية بعد هذه الدنيا الفانية . فقد كانت هذه الدنيا فى نظرهم فترة قصيرة ، بعدها حياة لها أمد غير محدود ، بل إن دنيانا ليست إلا ممراً إلى ذلك الخلود . وقد قام اعتقادهم بالحياة الآجلة بعد هذه العاجلة على أساسين :

«أحدهما» أن هذه الدنيا معترك يتنازع فيه الشر والخير والبر والفاجر ، وكثيراً ما نرى فى هذا المعترك الشر ينتصر على الخير ، والفساق على الأبرار . فلو لم يكن هناك يوم كله للخير ، وكله على الشر ، يحاسب المسىء على إساءته ويكافىء المحسن بإحسانه ما استقام العدل الإلهى ، فمن العدالة الإلهية إذن

أن يكون يوم آخر يكون للأبرار على الفجار ، وللأطهار لا للأشرار . وأن تكون الحياة الباقية لينتصر فيها الخير ، وينتصف فيها من الشر .

« ثانيهما » اعتقادهم فى النفس الإنسانية فهم يعتقدون وجود نفس تنفصل عن الجسم ، وإن كانت تحل فيه ، وأن تلك النفس ذات أربع شعب إحداها الروح ، وهى أساس القوى فى الإنسان . والثانية العقل والإرادة، والثالثة صورة من الأثير أو مادة أدق منه على هيئة الجسم تماماً ، والرابعة الجوهر الخالد السامى الذى يشترك فيه الإنسان مع الآلهة، وهو سر الوجود والعلو ، وهذه الشعبة من شعب النفس متصلة بعالم الآلهة ما دام الإنسان على قيد الحياة ، فإذا مات اتصلت به اتصالا وثيقاً . فأما الروح فهى التى تظل تتردد على الإنسان فى قبره إلى أن يجتاز الحساب، ويصل إلى مرتبة الثواب، وعندئذ تعود إليه فيشعر بما يشعر به الأحياء .

ولقد كانوا يعتقدون أن النفس لا تعيش إلا إذا كان الجسم سليما ، وسلامته هى التى تجعله صالحاً لعودة الروح إليه بعد أن فارقته بالموت ، ولذا بذلوا أقصى الجهد فى سبيل المحافظة على الجسم ، وجعله صالحاً لحلول النفس فيه بعد الموت ، وقد بعث ذلك فيهم الحيلة لأن يخترعوا تحنيط الموتى، وبقاء المومياء على هيئة من التماسك وعدم التحلل لكى تعود النفس إلى غلافها . ولقد اجتهدوا مع ذلك فى إقامة تماثيل للموتى تشبه أجسامهم تمام الشبه ، لكى تحل فيها النفس إن كان الجسم غير صالح ، وقد عددوا التماثيل للميت الواحد ، لأنه عسى أن يكون أحدها غير صالح فيكون الآخر صالحاً ، ولكى تكون الروح فى فسحة من الأماكن ، فتنتقل من هذا إلى ذاك .

وكانوا يعتقدون أيضاً أن الميت أو روحه فى العالم الآخر يحتاج إلى ما يحتاج إليه الأحياء فى هذه الدنيا من طعام وشراب ، وأن ما يقدم من ذلك فى الدنيا قرباناً على أرواح الأموات يفيدهم فى الآخرة ، ولذلك تكون روح

الميت فى أشد الألم إذا لم تقدم القرابين من طعام وشراب ، وما إلى ذلك من مطاعم الأحياء فى الدنيا .

١٣ ـ لهذه المعانى والخواص التى وصفوا النفس الإنسانية بها ، وللعدالة الإلهية التى تسود الأكوان ، اعتقد قدماء المصريين أنه لابد من حياة أخرى فيها النعيم المقيم للأخيار ، والعذاب الأليم للأشرار ، ثم إنه قبل أن يصل الميت إلى الثواب أو العقاب لابد من الحساب، والحساب يكون أمام محكمة تتألف من اثنين وأربعين قاضياً يرأسها أوزيريس نفسه ؛ وتسأل المحكمة الشخص عما قدم من خير ، وما قدمت يداه من شر . وقد خاض المؤرخون فى بيان الفضائل التى كانت تعد فضائل فى نظر المصريين فى هذا المقام ، وقوام هذه الفضائل سلبى ، دعامته عدم إلحاق الأذى والضرر بغيره من الناس ، وإيجابى دعامته نفع الناس وإطعام القانع والمعتر ، وإذا انتهى الحساب أمر المحاسب أن يمر على الصراط ، وهو طريق ممدود فوق الجحيم ، فإذا اجتازه الشخص نجا وارتقى إلى مرتبه الآلهة ، وإذا سقط من فوقه انتهى إلى واد فيه الأفاعى والحيات التى تتولى عقابه بقسوة ، حتى ينال الجزاء الأوفى على ما قدمت يداه .

ونرى من هذا أن الابرار من الأموات يرتفعون إلى مرتبة الآلهة ؛ ولهذا سرى عندهم عباده الموتى ، وأضافوا إليهم صفات الألوهية وخواصها فى نظرهم ، بل إنهم كانوا يعتقدون أن أرواح موتاهم تتصل بعالم الأحياء وتنبئهم بأسرار المستقبل ، فتحذرهم مما عساه يكون فى سبيلهم من أخطار ، وتبشرهم بما عساه ينالهم من خير ، وقد ملئت أساطيرهم بشىء كثير مما يؤيد اعتقادهم فيما يزعمون .

كتاب الموتى :

١٤ ـ هو كتاب مشتمل على آداب وفضائل ، وعلى ما تلقته الروح

لتحسن الإجابة أمام محكمة الحساب ، وهو يعد الكتاب الأعلى عند قدماء المصريين ،يتعبدون بتلاته وهم أحياء ؛ ويوضع معهم فى قبورهم وهم أموات يزعمون أن أحد الآلهة قد كتبه بيده ، وقد جاء عن منزلة الكتاب فى أحد أبوابه « إن الكتاب يعلى شأن الميت فى أحضان رع ، ويحبوه السبق لدى توم ، ويجعله عظيما لدى أوزيريس ، ومرهوب الجانب لدى الآلهة . وكل ميت وضع له هذا الكتاب تخرج روحه نهاراً مع الأحياء ، وتصعد إلى الآلهة ، ولا يعترضها عارض من أحد ، تدنيه الآلهة منها ، وتلمسه لأنه شبهها ، ويقفه هذا الكتاب على ما حدث منذ البدء . هذا الكتاب خفى ، وهو حق لم يعلم به أحد . إنه مالا عين رأت ، ولا أذن سمعت . إنه لا يراه أحد سواك ، ومن علمك اياه فلا تزد عليه شيئا من خواطرك وخيالك ، بل قم بكل ما يدعوك إليه وسط بهو التحنيط ، إنه سر لا يصل إليه عامى . إنه غذاء الميت فى عالم الدنيا ، وقوت روحه فى الأرض، يجعله حيا دائما ، فلا يعلو عليه شيء فى الأرض ولا فى السماء »

والكتاب مشتمل على جميع الكلمات السحرية التى تستعمل لعلاج الأمراض ، ومشتمل على الصلوات والأدعية ، وعلى ما يجب للميت من تحنيط ، وطقوس دينية ، ويحكى ما يقوله الميت الذى أقيمت له الطقوس التى يدعو إليها الكتاب ، فيقول « عندئذ يقول : تحية لك يا أبى أوزيريس لقد حنطت لحومى هذه ، ولن يتحلل جسمى ، فأنا كامل غير محسوس،مقتديا بك يا أبى أوزيريس ، حبذا الإله فى صورة رجل لا يتحلل جسمه.

وفى الكتاب فصل قيم بما ينبغى أن تقوله الروح أمام محكمة الآلهة فى اليوم الآخر ، وقد سماه شامبليون اعترافا سلبيا ، وإليك بعضه : « ياسادة الحقيقة ، إننى حامل الحقيقة ، إننى لم أخن أحدا ، ولم أغدر بأحد ، ولم أجعل أحدا من ذوى قرابتى فى ضنك ، ولم أقم بدنية فى موئل الحقيقة ، ولم أمازج عملى بشر قط ، وجافيت الضر والأذى ، ولم أعمل باعتبارى

رئيس أسرة ماليس من عمل ربها ، ولم أكن سببا فى خوف خائف ، ولا إعواز معوز ، ولا ألم متألم ، ولا بؤس بائس ، لم أقدم على مالا يليق بالآلهة فلم أجع أحدا ، ولم أبك أحداً ، ولم أقتل نفساً ، وما حرضت أحداً على قتل أو خيانة ، ولم أكذب ، ولم أسلب المعابد ذخائرها ، ولا المومياء طعامها ، ولم أرتكب أمراً لا يليق مع كاهن فى كهنوته . ولم أغل فى الأسعار ، ولم أطفف الكيل والميزان . ولم أسرق الماشية من مرعاها ، ولم أصد طير الالهة ، ولم أدفع الماء فى عهد الفيضانات ، ولم أحول مجرى ترعة ، ولم أطفىء الشعلة فى ساعتها ، ولم أخدع الآلهة فى قرابينها المختارة . فأنا نقى ، أنا نقى ، أنا نقى » .

وجاء فى الكتاب أيضاً ما تقوله المحكمة عن الميت الذى تزكيه أعماله : « ليس فيه شر ولا خطيئة ولا فساد ولا دنس ، وليس عليه اتهام ، ولا فى أعماله مايثير الاعتراض ، فقد عاش من الحق وتغذى بالحق ، وإن فعاله لتشرح الصدور ، وهى مما يطلبه الرجال ، ويسر الآلهة ، وقد أخلص للآلهة محبته ، وأعطى الخبز من كان خاويا ، والماء من كان صاديا ، واللباس من كان عاريا ، وأعار الزورق لمن ليس عنده ... »

ويقول جوستاف لوبون فى التعليق على هذا الكلام : « ألا يظن من يقرأ هذا الكلام أنه يسمع صوت قرون سحيقة تتكلم من قبل بوذا والمسيح ، معلنة قانونها اللطيف للإحسان والنفع العام .

وفى الحق انه مهما تكن فى الديانة المصرية القديمة من أوهام وعقائد فاسدة ، لا تستمد من المنطق قوتها ، فإن الآداب التى اشتملت عليها ، والفضائل التى تدعو إليها ، خصوصاً الجانب السلبى منها ، كانت معيناً خصباً ، قبست منه الديانات غير المنزلة وحكمة الحكماء شيئاً كثيراً ، لأنها لم تخل من خير يقتبس ، وحكمة تقتنص ، ولله فى خلقه شئون .

البرهمية

١) الهند من الأمم ذات التاريخ المجيد ، لها مدنية قديمة ، وحضارة توغل فى القدم إلى أبعد أغوار التاريخ , غير أن تلك الحضارة قد انبتت الصلة بيننا وبين جزء كبير منها ، ولذا صار كنزا مدفوناً فى بطون القدم ، لم يكشف عنه التاريخ بعد ، والاثارة الباقية التى اتصل تاريخها هى الجزء من تاريخهم التى ابتدأ بالغزو الآرى . غير أن الكشف والبحث والنقوش، وما تنطق به الأحجار التىلم يؤثر فيها كر الغداة ومر العشى .كل ذلك يشير إلى أن فى طيات ذلك الدفين الذى لم ينشر من قبره بعد حضارة زاهية ، ومدنية سامية لسكان تلك الأصقاع المترامية الأطراف الخصبة الجناب ، الكثيرة الخيرات ، بيد أن تلك الإشارة لاتزال مبهمة ، تشير إلى وجود حضارة سامية . ولم تبين كنهها وحقيقتها وكل مناحيها ، وحال السكان من غنى أو فقر ، ونظم الحكم ومقدار العلوم، وفروعها ، وغير ذلك من مقومات الحضارة ، وعناصر تكوينها ، فكل هذه الأمور لايزال البحث جاريا فى كشفها وإعلانها ، وقد أخذت الأسباب تتوافر ، ومادة الاستقراء والتتبع تتكون .

أما بعد الغزو الآرى فقد تكونت حضارة اتصلت سلسلتها وأحاط بها التاريخ ، وهى متماسكة الأجزاء ، متصلة الحلقات ، فإن التاريخ يروى أن قبيلة آرية غزت الهند حوالى القرن الخامس عشر قبل الميلاد ، وفرضت على الهنود مدنيتها وحضارتها ودياناتها ، وجاءوا إلى حضارة الهند التى كانت لهم قبل الغزو ، فطمسوا معالمها ، وقوضوا دعائمها ، ولم يتركوهم

أحراراً فى دياناتهم القديمة ، بل فرضوا عليهم دياناتهم هم ونسخوا آلهتهم ، واستبدلوا بها آلهتهم التى يعبدونها هم ،

٢) وهنا تختلف كلمة المؤرخين، وتتباين مناحى آرائهم فى جزئية نشير إليها ، ولا نلم بتفاصيلها ، تلك هى مقام العنصر الآرى الأول ، أهو أوربا ، ورحل فريق منها إلى ربوع آسيا ، فكان منه فى فارس والهند قبائل وأفخاذ وبطون بتلك الرحلة ، وعلى هذا الرأى أكثر العلماء والباحثين ،يقولون إن الهند كانت قبل الغزو الآرى مسكونة بقوم ساميين ، ثم جاءهم الآريون غزاة فاتحين .

ولكن يرى بجوار هذا الرأى آخرون أن الآريين كان مقامهم الأول فى التركستان ، ومن التركستان انسابوا فى بعض بلاد آسيا كفارس والهند ، واستغرقوا كل أوربا ، وقد كان هذا هو الرأى القديم إلى أن غلب عليه الرأى الثانى بما جد من بحوث كما يزعم العلماء الأوربيون .

ومهما يكن من شىء فإن للهند مدنية تضرب فى القدم إلى أكثر من ثلاثة آلاف سنة ، ولكن قد طمست آثارهم بحضارة أخرى أتى بها غزاة فاتحون آريون ، سواء أكانوا موافقين فى العنصر للسكان الأصليين أم غير موافقين .

ويهمنا نحن فى دراسة تاريخ دياناتهم أن نقول : إن أولئك الغزاة كانوا يحملون معهم ديانة أخرى غير ديانة الهند القديمة . والديانه البرهمية التى سندرسها فى بحثنا هذا ليست هى الديانه القديمة ، بل أصولها من ديانة هؤلاء الفاتحين ، وسنبينها بعد ذلك فضل بيان ،

(٣) الديانة القديمة : أما الديانة القديمة فإن التاريخ لا يشير إليها إشارة واضحة ، كما قلنا ولكن جملة ما يقال فيها ، وتشير إليه الآثار أن قوام هذه

الديانةعبادة النيران ، فإنها كانت المعبود المقدس الذى تقدم إليه القرابين من خبز وأعشاب وخمر ، ويتولى الكهنة ، وهم سدنة معابد النيران ، القيام بما يقتضيه التقديم من طقوس ورسوم فى تلك الديانة ، ولم تكن النار الإله المتفرد بالألوهية ، بل كان يشاركها فى التقديس آلهة أخرى منها الشمس ، لما تفيض به على الكون من أشعة مضيئة ، وحرارة منعشة للأجسام . ومنها حيوانات مخيفة كتنين مفزع أو وحش هائل ، وكانوا يعتقدون أن هناك عالما آخر وهو عالم الأموات وأن الأخيار إذا ماتوا وقد رضيت عنهم آلهتهم تمنح أرواحهم معرفة الغيب ، وقدرة على التأثير فى الكون، والمشاركة فى تصريفه وتدبيره بمجرد مغادرتها الأجسام، وقد استمرت تلك الديانة هى السائدة فى الهند ، حتى جاءت ديانة الفاتحين .

(٤) الديانة الجديدة وهى البرهمية : نسخت تلك الديانة القديمة ، وحلت محلها، ولكن هل لنا أن نعتقد أنها محتها محوا ، وقامت على انقاضها ، وشادت عليها دعائم بنائها !! ان التاريخ يثبت لنا إن العقائد لا تنتزع من النفوس انتزاعاً ، وتستل من القلوب ، كما يستل دقيق الشعر مما يعلق به ، ويدخل فى نسيجه ، إن العقائد التى تستمكن فى القلوب ، وتستقر فى ثنايا النفس ، لا تنزع منها بفعل قاهر ، مهما تكن سطوته ، ولا بطغيان جبار مهما تكن قوته ، لأن العقائد تتصل بالنفوس والأرواح ، والقهر والغلبة سلطانهما على الأبدان ، لا على القلوب ، ولئن فعلت الدعاية والإقناع فعلهما ليكونن أقصى غاياتهما أن يغذيا النفس المتدينة بعقائد قديمة مألوفة لها ، بغذاء جديد يتفاعل مع مافى أغوارها من عقائد ، ويتمازج معه ويتمثل منهما عنصر جديد قد نال من كلا المتمازجين أشطراً ، وأخذ من كل واحد نصيبا ، يتفاوت بتفاوت قوته ، ومقدار استمكانه فى النفس ، وقوة اقتناعها به .

وإذا طبقنا تلك النظرية التى تصل إلى مرتبة البدهيات المقررة عند

مؤرخى الأديان، فلابد أن نقول إن الديانة الجديدة لم تمح الديانة القديمة محواً، ولم تنزل كل آثارها ، بل إن الناس قد مازجوا بين قديمهم وما عرض لهم، ولابد أن نقول مع ذلك إن أولئك الفاتحين لم يسلكوا مسلك القهر والغلب فقط فى حمل الناس على الدين الجديد ، بل أضافوا إلى ذلك الإقناع والتأثير بالحجة ، واجتمع لدى الهنود من تفاعل القديم والجديد فى نفوسهم مزيج لعله أقرب إلى الجديد فى صورته ، ولا ينافى القديم فى معناه .

٥) العقيدة البرهمية : يقسم أبو الريحان البيرونى الهنود بالنسبة لاعتقادهم فى البرهمية إلى خاصة وعامة ، ويفرض أن الخاصة موحدون وغيرهم وثنيون، وهو يقول فى هذا المقام : « إنما اختلف اعتقاد الخاص والعام فى كل أمة بسبب أن طباع الخاصة تنازع المعقول ، وتقصد التحقيق فى الأصول ، وطباع العامة تقف عند المحسوس ، وتقتنع بالفروع ، ولا تروم التدقيق ، وخاصة فيما افتنت فيه الآراء ، ولم تتفق عليه الأهواء » .

وبعد ذلك يبين اعتقاد الخاصة بأن معبودهم واحد أزلى ؛ فيقول : « واعتقاد الهند فى الله سبحانه وتعالى أنه الواحد الأزلى ، من غير ابتداء ولا انتهاء ، المختار فى فعله ، القادر الحكيم الحى المحيي المدبر . المنفرد فى ملكوته عن الأضداد والأنداد ، لايشبه شيئاً ولا يشبهه شىء ، ولنورد لك شيئاً من كتبهم لئلا تكون حكايتنا كالشىء المسموع فقط ، قال السائل فى كتاب باتنجل من هذا المعبود الذى ينال التوفيق بعبادته .

قال المجيب : هو المستغنى بأزليته ووحدانيته عن فعل ، لمكافأة عليه براحة تؤمل وترتجى ، أو شدة تخاف وتتقى ، والبرىء عن الأفكار ، لتعاليه عن الأضداد المكروهة والأنداد المحبوبة ، والعالم بذاته سرمدا ، إذ العلم الطارىء يكون لما لم يكن بمعلوم ، وليس الجهل بمتجه عليه فى وقت ما أو حال . ثم يقول السائل بعد ذلك : فهل له من الصفات غير ما ذكرت ؟ فيقول المجيب :

العلو التام فى القدر لا المكان ، فإنه يجل عن التمكن ، وهو الخير المحض التام الذى يشتاقه كل موجود ، وهو العلم الخالص عن دنس الهوى والجهل . قال السائل: أفتصفه بالكلام ، أم لا ؟ قال المجيب: إذا كان عالما فهو لا محالة متكلم.

قال السائل : فإن كان متكلما لأجل علمه ، فما الفرق بينه وبين العلماء الحكماء الذين تكلموا من أجل علومهم؟ قال المجيب : الفرق بينهم هو الزمان فإنهم تعلموا فيه وتكلموا بعد أن لم يكونوا عالمين ولا متكلمين ، ونقلوا بالكلام علومهم إلى غيرهم ، فكلامهم وإفادتهم فى زمان ، إذ ليس للأمور الإلهية بالزمان اتصال ، فالله سبحانه وتعالى عالم متكلم فى الأزل ، وهو الذى كلم براهم وغيره من الأوائل على أنحاء شتى، فمنهم من ألقى إليه كتابا ، ومنهم من فتح الواسطة بابا ، ومنهم من أوحى إليه فنال بالفكر ما أفاض عليه . قال السائل: فمن أين له هذا العلم ؟ قال المجيب :علمه على حاله فى الأزل ، وإذ لم يجهل قط فذاته عالمه ، لم تكتسب علما لم يكن له ، كما قال فى نيذ الذى أنزل على براهم : احمدوا وامدحوا من تكلم ببيذ ، وكان قبل بيذ .

قال السائل : كيف تعبد من لم يلحقه الإحساس ؟ قال المجيب : تسميته تثبت أنيته فالخبر لا يكون إلا عن شىء ، والاسم لا يكون إلا لمسمى، وهو إن غاب عن الحواس فلم تدركه ، فقد عقلته النفس . وأحاطت بصفاته الفكرة ،

وهذه هى عبادته الخالصة ، وبالمواظبة عليها تنال السعادة »

ويعتبر هذا الكلام الذى جاء فى كتبهم عقيدة الخواص .أما العوام فيرى أنهم انحرفوا عن تعاليم تلك الكتب ، وزادوا أقاويل من عندهم .

ويقول حينئذ: « ثم إن تجاوزنا الخواص إلى عوامهم اختلفت الأقاويل عندهم . وربما سمجت ، كما يوجد مثله فى سائر الملل . بل فى الإسلام من التشبيه والإجبار » .

وعند الكلام على عبادة الأصنام يتكلم بما يفيد أن عبادة الأصنام نحلة العوام لا الخواص، فيقول: «معلوم أن الطباع العامية نازعة إلى المحسوس، نافرة من المعقول الذى لا يعقله الا العالمون، الموصوفون فى كل زمان ومكان بالقلة، ولسكونه إلى المثال عدل كثير من أهل الملل الى التصوير فى الكتب والهياكل كاليهود، والنصارى، والمنانية».

ويسترسل فى ذكر الأشباه والأمثال، ثم يبين الخرافات التى اتخذت أساسا لعبادة الأوثان، مسنداً أساس ذلك الى ملك من ملوكهم.

٦) هذا كلام البيرونى، كله ناطق بأن خواص الهنود موحدون، وعوامهم وثنيون، ولنا نظرة فى كلامه، وذلك أنه فى الاستدلال لدعواه نقل نصوصا من كتبهم، وأن هذه لا تمنع أنه يوجد فى الكتب ما يناقضها، ففيها ما يشير إلى الأقانيم الثلاثة التى سنبينها؛ ففى هذه الكتب عبارات تفيد وحدة الإله المسيطر بينما فيها ما يفيد التثليث أيضاً، ويجب أن يفهم هذا محمولا على ذلك ليتكون منهما وحدة مؤتلفة الأجزاء، مترابطة الأفكار، فإذا فسرنا الوحدة إذن بما يتفق مع عقيدة التثليث والحلول التى سنبينها، لا تكون فكرة التوحيد التى نقل عبارتها مفيدة لمعنى التوحيد الذى يفهمه المسلمون.

ولو سلمنا أن الكتب التى نقل عنها لا يفسر فيها التوحيد إلا بالمعنى الذى نفهمه معاشر المسلمين، وما تدل عليه ظواهر عبارتها؛ فمن أين جاءلنا أن الخواص لم ينحرفوا عن مسلك تلك الكتب؟ وإنك لتجد فى التوراة التى يقرؤها اليهود اليوم عبارات وأحكاما دينية قد تجانف عنها اليهود جميعاً اليوم، خواصهم وعوامهم فى ذلك سواء، ولو كان قد حكى لنا أخباراً عن موحدى الخواص الذين لقيهم وشاهدهم وتحدث إليهم، وحاورهم وعرف حقيقة نحلتهم لتلقينا كلامه بالقبول، ولصدقناه فى كل ما يدعى من توحيد الخواص، أما نقل نص الكتب فليس بكاف لإثبات أن الانحراف لم يقع،

فإن الانحراف عن المبادىء الدينية إذا وقع شمل الخواص والعوام . بل فى بعض الأحيان يبدأ بالانحراف من يكون فى مرتبة الخواص . وإن الفرق التى ضربها فى الإسلام مثلا ـ وهم المشبهة ، والجبرية ـ حجة عليه ، وليسوا حجة له ، فإن أولئك لا نستطيع أن نقول إنهم من العوام ، بل هم فى مرتبة الخواص ، لأن منهم من كان ذا فلسفة وذا علم ، لهذا كله لا نستطيع أن نسلم للبيرونى دعواه لأن ما ساقه من الأدلة لا ينتجها ، وليس بطلان الدليل مستلزما بطلان المدلول ، فيجوز أن يكون فيهم موحدون يعتقدون التوحيد كما يعتقد المسلمون ، ولكن ما ساقه من دليل لا يصلح أن يكون حجة فى هذا المقام ويظهر على أية حال أن موحديهم (إن كانوا) من الندرة بحيث لا يمنعون تعميم الحكم بالوثنية على البرهميين ، لأن الحكم يتبع الغالب الشائع ، ولا يتبع القليل النادر .

٧) ومنشأ الوثنية فى الديانة البرهمية أنهم كانوا يعبدون القوى المؤثرة فى الكون وتقلباته فى زعمهم ، ثم لم يلبثوا أن جسدوا تلك القوى ، بأن اعتقدوا حلولها فى بعض الأجسام ، فعبدوا الأصنام لحلولها فيها ، وتعددت آلهتهم حتى وصلت إلى ثلاثة وثلاثين إلها ، ثم عرا عقائدهم التغير والتبديل ، حتى انحصر الآلهة فى ثلاثة أقانيم ، وذلك أنهم توهموا أن للعالم ثلاثة آلهة ، وهى (١) براهما وهو الآله الخالق مانح الحياة ، والقوى الذى صدرت عنه جميع الأشياء ، والذى يرجو لطفه وكرمه جميع الأحياء ، وينسبون إليه الشمس التى بها يكون الدفء وانتعاش الأجسام ، وتجرى الحياة فى الحيوان والنبات فى زعمهم .

٢) سيفا أو سيوا ، وهو الإله المخرب المفنى الذى تصفر به الأوراق الخضراء ويأتى الهرم بعد الشباب ، وتفنى مياه الأنهار فى لجج البحار ، وينسبون اليه النار ، لأنها عنصر مدمر مخرب ، إن تأجج لا يبقى ولا يذر .

٣) ويشنو أو بشن على حد تعبير البيرونى ، ويعتقدون أن ويشنو هذا حل فى المخلوقات ليقى العالم من الفناء التام ، ولقد جاء فى كتاب البيرونى: «إن باسيديو يقول فى الكتاب المعروف بكيتا : أما عند التحقيق فجميع الأشياء إلهية ، لأن بشن جعل نفسه أرضا ليستقر الحيوان عليها ، وجعلها ماء ليغذيهم ، وجعلها نارا وريحاً لينميهم ويلششهم ، وجعلها قلبا لكل واحد منهم ، ومنح الذكر والعلم وضديهما ، وإن كل معانى الخير والسمو من فيض وشنو ، وكل الحكماء والصالحين ، يقومون بالعدل والصلاح والفضيلة ، وينصرون الأخيار على الأشرار بفيض من ويشنو.

وهذه الآلهة الثلاثة أقانيم لإله واحد فى زعمهم ، والآله الواحد هو الروح الأعظم واسمه بلغتهم (آتما) .

ودون هذه الآلهة الثلاثة آلهة أخرى دون هذه الآلهة سلطانا وقوة وعبادة ، وهم من هؤلاء فى الدرجة الثانية أو الثالثة أو الرابعة ، ولكن براهمتهم وهم علماء الدين يرجعون كل شىء إلى الآلهة الثلاثة ، ويرجعون كل شىء إلى إله واحد ، ولا يصح أن نفهم من هذا أن البراهمة يعتقدون التوحيد المطلق الذى نفهمه من كلمة التوحيد ، وإلا كان العرب موحدين ، لأنهم كانوا يعتقدون أن الله خالق كل شىء ، ولكنهم كانوا يعبدون الأوثان ، ويقولون : ما نعبدهم إلا ليقربونا إلى الله زلفى ، وهذا ليس من التوحيد فى شىء ، لأن التوحيد الكامل هو التوحيد فى العبادة والخلق والاعتقاد ، وليس توحيد البراهمة ولا جاهلي العرب شيئاً منه .

٨) والهنود يعتقدون أن بعض آلهتهم حلت فى إنسان اسمه كرشنة ، والتقى فيه الأله بالإنسان ، أو حل اللاهوت فى الناسوت فى كرشنة ، كما يعبر المسيحيون عن المسيح ، ويصفونه بأنه البطل الوديع المملوء ألوهية ، لأنه قدم شخصه فداء للخليقة عن ذنبها الأول ، ويقولون إن عمله لا يقدر

عليه أحد سواه .

ويعتقدون أن الأله وشنو وهو الابن وثانى الاقانيم قد حل فيه ، ومن الغريب أنهم يذكرون حول « كرشنة » من الأساطير والعجائب ما يشبه ما جاء بالأناجيل عن المسيح ، فكرشنه ولد من عذراء مخطوبة ، اسمها ديفاكى ، ويصفونه بأنه الأله وأن ولادته أحيطت بعجائب ، فالأرض سبحت ، وظهر نجمه فى السماء ، وترنمت الأرواح فرحا وطربا ؛ ورتل السحاب بأنغام مطربة ، وقد ولدته أمه فى غار فأضاء عند ولادته بنور عظيم ، وصار وجه أمه يرسل أشعة نور ومجد ، ويزعمون أنه كان لأمه قبيل ولادته خطيب قد خطبها لتكون زوجا له ، كما اعتقد النصارى أن مريم أم المسيح كان لها خطيب اسمه يوسف النجار . والقول الجلى أن الهنود يعتقدون فى كرشنه ما يعتقده المسيحيون فى المسيح ، وقد عقد صاحب كتاب « العقائد الوثنية فى الديانة النصرانية » موازنة بين أقوال الهنود فى كرشنة ، وأقوال المسيحيين فى المسيح ، فتقارب الاعتقادان حتى أوشكا أن يتطابقا . وإذا كانت البرهمية أسبق من النصرانية المحرفة ، فقد علم إذن المشتق والمشتق منه ، والأصل وما تفرع عنه . وعلى المسيحيين أن يبحثوا عن أصل دينهم .

ولننقل لك بعضا من هذه الموازنة على سبيل المثال، وغيره يقاس عليه.

أقوال الهنود الوثنيين فى كرشنة ابن الله	أقوال النصارى المسيحيين فى يسوع المسيح ابن الله
كرشنة : « هو المخلص والفادى والمعزى والراعى الصالح والوسيط وابن الله والأقنوم الثانى من الثالوث المقدس، وهو الآب والابن وروح القدس »	يسوع المسيح : « هو المخلص والفادى والمعزى والراعى الصالح والوسيط وابن الله والأقنوم الثانى من الثالوث المقدس، وهو الآب والابن وروح القدس »
١) قد مجد الملائكة ديفاكى والدة كرشنة بن الله، وقالوا يحق للكون أن يفاخر بابن هذه الطاهرة	١) دخل الملاك على مريم العذراء والدة يسوع المسيح وقال لها سلام لك أيها المنعم عليها، الرب معك
٢) عرف الناس ولادة كرشنة من نجمه الذى ظهر فى السماء	٢) لما ولد يسوع المسيح ظهر نجمه فى المشرق وبواسطة ظهور نجمه عرف الناس محل ولادته
٣) لما ولد كرشنة سبحت الارض وأنارها القمر بنوره وترنمت الارواح وهامت ملائكة السماء فرحا وطربا، ورتل السحاب بأنغام مطربة	٣) لما ولد يسوع المسيح رتل الملائكة فرحا وسرورا وظهر من السحاب أنغام مطربة

١) كتاب تاريخ الهند المجلد الثانى ص ٣٢٩	١) إنجيل لوقا الاصحاح الثالث ص ٢٨، ٢٩ وإنجيل مريم الاصحاح السابع
٢) كتاب تاريخ الهند المجلد الثانى ص ٣١٧، ٣٦٧	٢) إنجيل متى الإصحاح الثانى العدد ٣
٣) كتاب فشنو بورانا ص ٥٠٢	٣) إنجيل لوقا الإصحاح الثانى العدد ١٣

٤) كان كرشنة من سلالة ملوكانية ولكنه ولد فى غار بحال الذل والفقر	٤) كان يسوع المسيح من سلالة ملوكانية ويدعونه « ملك اليهود » ولكنه ولد فى حالة الذل والفقر بغار
٥) لما ولد كرشنة أضىء الغار بنور عظيم وصار وجه أمه ديفاكى يرسل أشعة نور ومجد .	٥) لما ولد يسوع المسيح أضيء الغار بنور عظيم أعيا بلمعانه عينى القابلة وعينى خطيب أمه يوسف النجار
٦) ومن بعد ما رضعته صارت تبكى وتندب سوء عاقبة رسالته فكلمها وعزاها	٦) وقال يسوع المسيح لامه وهو طفل : يامريم أنا يسوع بن الله وجئت كما أخبرك جبرائيل الذى أرسله أبى إليك وقد أتيت لأخلص العالم
٧) وعرفت البقرة أن كرشنة إله وسجدت له	٧) وعرف الرعاة يسوع وسجدوا له
٨) وآمن الناس بكرشنة واعترفوا بلاهوته وقدموا له هدايا من صدل وطيب	٨) وآمن الناس بيسوع وقالوا بلاهوته وأعطوه هدايا من طيب ومر

٤) كتاب دوان ص ٢٩٧
٥) دوان ص ٢٩٧
٦) تاريخ الهند المجلد الثانى ص ٣١١
٧) دوان ص ٢٧٩
٨) كتاب الديانات الشرقية ص ٥٠٠ وكتاب الديانات القديمة المجلد الثانى ص ٣٥٣

٤) دوان ص ٢٧٩
٥) إنجيل ولادة يسوع المسيح الإصحاح ١٢ والعدد ١٣
٦) إنجيل الطفولية الإصحاح الأول العدد الثانى والثالث
٧) أنجيل لوقا الاصحاح الثانى من عدد ٨ ـ ١٠
٨) إنجيل متى الإصحاح الثانى العدد ٢

٩) وسمع نبي الهنود «نارد» بمولد الطفل الإلهي كرشنة فذهب وزاره في «توكول» وفحص النجوم فتبين له من فحصها أنه مولود إلهي يعبد .

١٠) لما ولد كرشنة كان «ناندا» خطيب أمه ديفاكي غائبا عن البيت حيث أتى إلى المدينة كي يدفع ما عليه من الخراج للملك

١١) ولد كرشنة بحال الذل والفقر مع أنه من عائلة ملوكانية

١٢) وسمع ناندا خطيب أمه ديفاكي والدة كرشنة نداء من السماء يقول له: قم وخذ الصبي وأمه فهر بهما إلى كاكول واقطع نهر جمنه لأن الملك طالب إهلاكه

٩) ولما ولد يسوع في بيت لحم اليهودية في أيام هيرودس الملك إذ المجوس من المشرق قد جاؤا إلى أورشليم قائلين : أين هو المولود ملك اليهود

١٠) ولما ولد يسوع كان خطيب أمه غائبا عن البيت وأتى كي يدفع ما عليه من الخراج للملك

١١) ولد يسوع المسيح بحالة الذل والفقر مع أنه من سلالة ملوكانية

٢١) وأنذر يوسف النجار خطيب مريم والدة يسوع بحلم كي يأخذ الصبي وأمه ويفر بهما إلى مصر لأن الملك طالب إهلاكه

---

٩) تاريخ الهند المجلد الثاني ص٣١٧
١٠) كتاب فشنو بورانا الفصل الثاني من الكتاب الخامس
١١) التنقيبات الآسيوية المجلد الاول ص٢٥٩ وتاريخ الهند المجلد الثاني ص٣١٠
١٢) كتاب فشنو بورانا الفصل الثالث

٩) إنجيل متى الإصحاح الثاني عدد ١، ٢
١٠) انجيل لوقا الاصحاح الثاني من عدد ١ - ١٧
١١) انظر تعداد نسبة في انجيل متى وإنجيل لوقا
١٢) إنجيل متى الإصحاح الثاني عدد ١٣

١٣) وسمع حاكم البلاد بولادة كرشنة الطفل الإلهى وطلب قتل الولد، وكى يتوصل إلى أمنيته أمر بقتل كافة الأولاد الذكور الذين ولدوا فى الليلة التى ولد فيها كرشنة.

١٤) واسم المدينة التى ولد فيها كرشنة « مطرا » وفيها عمل الآيات العجيبة ولم تزل محل التعظيم والاحترام عند الهنود العابدين للأوثان القائلين عن كرشنه إنه ابن الله وإنه الله إلى يومنا هذا .

١٥) كانت ولادة القديس راما قبل ظهور كرشنه فى الناسوت بزمن قليل وقد سعى فانسا ملك البلاد فى إهلاك القديس راما وإهلاك كرشنه أيضاً .

١٣) وسمع حاكم البلاد بولادة الطفل يسوع الإلهى وطلب قتله، وكى يتوصل إلى أمنيته أمر بقتل كافة الأولاد الذين ولدوا فى الليلة التى ولد فيها يسوع المسيح .

١٤) واسم المدينة التى هاجر إليها يسوع المسيح فى مصر لما ترك اليهودية المطرية ، ويقال إنه عمل فيها آيات وقوات عديدة .

١٥) وكانت ولادة يوحنا المعمدان قبل ولادة يسوع المسيح بزمن قليل وقد سعى الملك هيرودس فى إهلاك الطفل يسوع المسيح وكان يوحنا مبشراً بولادة يسوع المسيح

---

١٣) دوان ص ٢٨٠

١٤) تاريخ الهند المجلد الثانى ص ١٧ م والتنقيبات الآسيوية المجلد الأول ص ٢٥٩

١٥) تاريخ الهند المجلد الثانى ص ٣١٦

١٣) إنجيل متى الإصحاح الثانى

١٤) المقدمة على إنجيل الطفولية تأليف هيجين

١٥) إنجيل تاريخ ولادة يسوع المسيح الإصحاح السادس

١٦) وربى كرشنة بين الرعاة ولما جىء به إلى مطرا كان فى احتياج عظيم إلى التعليم فأتى له بمعلم خبير وفى وقت قليل فاق على أستاذه فى العلوم وأعياه فى المسائل العلمية السنسكريتية الدقيقية .

١٧) وفى أحد الأيام كان كرشنة سائراً مع قطيع من البقر فاختاروه ملكا عليهم وذهبت كل بقرة إلى المكان الذى عينه لها هذا الملك

---

١٦) دوان ص٢٨٠ وتاريخ الهند المجلد الثانى ص٣٢١

١٧) تاريخ الهند المجلد الثانى ص ٣١٢

١٦) وأرسل يسوع المسيح إلى عند المعلم زاخوس كى يعلمه فكتب له أحرف ألف، باء وقال ليسوع قل - الف - فقال الرب يسوع أخبرنى أولا عن معنى حرف الألف ومن بعده أقول حرف الباء فتهدد المعلم يسوع بالضرب فقام يسوع وفسر معنى الألف والباء وأخبره عن الحروف المستقيمة والحروف المنحنية والحروف المثناة والتى لها نقط وحركات والتى ليس لها نقط ولماذا وضعت فى هذا الترتيب أى بعض الحروف قبل غيرها وطفق يخبر عن أشياء لم يسمع بها المعلم من قبل ولم يقرأها فى كتاب

١٧) وفى شهر أزار جمع يسوع الأولاد ورتبهم كأنه ملك عليهم وإذا مر بهم أحد كانوا يأخذونه غصباً ويأمرونه بالسجود للملك

---

١٦) إنجيل الطفولية الإصحاح العشرين عدد ١ إلى ٨

١٧) إنجيل الطفولية الإصحاح ١٨ من عدد ١ - ٣

١٨) وفى أحد الأيام لسعت الحية بعض أصحاب كرشنة الذين يلعب معهم فماتوا فأشفق عليهم لموتهم الباكر ونظر اليهم بعين ألوهيته فقاموا سريعا من الموت وعادوا أحياء

١٩) وسرق بعض أصحاب كرشنة مع عجولهم وأخفاهم السارقون فى غار فخلق كرشنة أصحابا وعجولا مثلهم فى الشكل والهيئة .

٢٠) وأول الآيات والعجائب التى عملها كرشنة شفاء الأبرص

٢١) وأوتى كرشنة بامرأة فقيرة مقعدة ومعها إناء فيه طيب وزيت

١٨) وبينما كان يسوع يلعب لسعت الحية أحد الصبيان الذين كان يلعب معهم فلمس يسوع ذاك الصبى بيده فعاد إلى حال صحته .

١٩) وأخفى الأولاد الذين كانوا يلعبون مع يسوع أنفسهم فى فرن فبدلوا إلى هيئة جداء فناداهم يسوع تعالوا إلى هنا يأيها الأولاد لنلعب فأعيدت تلك الجداء هيئتهم الأولى صبيانا

٢٠) وأول الآيات والعجائب التى عملها يسوع المسيح هى شفاء الأبرص

٢١) وفيما كان يسوع فى بيت عنيا فى بيت سمعان الأبرص تقدمت إليه

---

١٨) تاريخ الهند المجلد الثانى ص ٣٤٣

١٩) تاريخ الهند المجلد الثانى ص ١٤ وكتاب خرافات الآريين المجلد الثانى ص ١٣٦

٢٠) تاريخ الهند المجلد الثانى ص ٣١٩

٢١) تايخ الهند المجلد الثانى ص

١٨) إنجيل الطفولية الإصحاح ١٨

١٩) إنجيل الطفولية الإصحاح ١٨

٢٠) إنجيل متى الإصحاح الثامن العدد الثانى

٢١) إنجيل متى الإصحاح السادس والعشرين عدد ٦ ، ٧

وصندل وزعفران وغير ذلك من أنواع الطيب فدهنت منه جبين كرشنة بعلامة مخصوصة وسكبت الباقى على رأسه	امرأة معها قارورة طيب كثيرة الثمن فسكبته على رأسه وهو متكىء
٢٢) كرشنة صلب ومات على الصليب	٢٢) يسوع صلب ومات على الصليب .
٢٣) لما مات كرشنة حدثت مصائب وعلامات شر عظيم وأحاط بالقمر هالة سوداء وأظلمت الشمس فى وسط النهار وأمطرت السماء ناراً ورماداً وتأججت أشعة نار حامية وصار الشياطين يفسدون فى الأرض وشاهد الناس ألوفا من الأرواح فى جو السماء يتراوحون صباحا ومساء وكان ظهورها فى كل مكان .	٢٣) لما مات يسوع حدثت مصائب جمة متنوعة وانشق حجاب الهيكل من فوق إلى تحت ، وأظلمت الشمس من الساعة السادس إلى الساعة التاسعة وفتحت القبور وقام كثيرون من القديسين وخرجوا من قبورهم.
٢٤) وثقب جنب كرشنة بحربة	٢٤) وثقب جنب يسوع بحربة
٢٥) وقال كرشنة للصياد الذى	٢٥) وقال يسوع لأحد اللصين

---

٢٣) كتاب ترقى التصورات الدينية المجلد الأول ص ١٧	٢٣) إنجيل متى الإصحاح الثانى والعشرين وإنجيل لوقا أيضاً
٢٤) دوان ص ٢٨٣	٢٤) دوان ص ٢٨٢
٢٥) فشنو برانا ص ٢٨٢	٢٥) إنجيل لوقا الإصحاح الثالث والعشرين عدد ٣،٤

رماه بالنبلة وهو مصلوب أذهب أيها الصياد محفوفا برحمتي إلى السماء مسكن الآلهة

٢٦ ـ ومات كرشنة ثم قام من بين الأموات

٢٧ ـ ونزل كرشنة إلى الجحيم

٢٨ ـ وصعد كرشنة بجسده إلى السماء وكثيرون شاهدوه صاعدا

٢٩ ـ ولسوف يأتي كرشنة في اليوم الأخير ويكون ظهوره كفارس مدجج بالسلاح وراكب على جواد أشهب وعند مجيئه تظلم الشمس والقمر وتزلزل الأرض وتهتز وتتساقط النجوم من السماء

٣٠ ـ وهو أي كرشنة يدين الأموات في اليوم الأخير

---

٢٦ ـ دوان ص ٢٨٢

٢٧ ـ دوان ص ٢٨٢

٢٨ ـ دوان ص ٢٨٢

٢٩ ـ دوان ص ٢٨٢

٣٠ ـ دوان ص ٢٨٣

اللذين صلبا معه الحق أقول لك أنك اليوم تكون معي في الفردوس

٢٦ ـ ومات يسوع ثم قام من بين الأموات .

٢٧ ـ ونزل يسوع إلى الجحيم

٣٨ ـ وصعد يسوع إلى السماء وكثيرون شاهدوه صاعدا

٢٩ ـ ولسوف يأتي يسوع في اليوم الأخير كفارس مدجج بالسلاح وراكب على جواد أشهب وعند مجيئه تظلم الشمس والقمر وتزلزل الأرض وتهتز وتتساقط النجوم من السماء

٣٠ ـ ويدين يسوع الاموات في اليوم الأخير

---

٢٦ ـ إنجيل متى الاصحاح ٢٨

٢٧ ـ دوان ص ٢٨٢ وكذلك كتاب الايمان المسيحي

٢٨ ـ إنجيل متى الإصحاح الرابع والعشرين

٢٩ ـ إنجيل متى الإصحاح ٢٤

٣٠ ـ إنجيل متى الإصحاح ٢٤ العدد ١ ، ٣ ورسالة الرومانيين

٣١) ويقولون عن كرشنة: الخالق لكل شيء ولولاه لما كان شيء مما كان فهو الصانع الأبدى

٣٢) كرشنة الألف والباء وهو الأول والوسط وآخر كل شيء

٣٣) لما كان كرشنة على الأرض حارب الأرواح الشريرة غير مبال بالأخطار التى كانت تكتنفه ونشر تعاليمه بعمل العجائب والآيات كإحياء الميت وشفاء الأبرص والأصم والأعمى وإعادة المخلوع كما كان أولا، ونصرة الضعيف على القوى، والمظلوم على ظالمه وكانوا إذ ذاك يعبدونه، ويزدحمون عليه ويعدونه إلها

---

٣١) دوان ص ٢٨٢

٣٢) دوان ص ٢٨٢

٣١) ويقولون عن يسوع المسيح: إنه الخالق لكل شيء ولولاه لما كان شيء مما كان فهو الصانع الأبدى

٣٢) يسوع الألف والياء وهو الأول والوسط وآخر كل شيء

٣٣) لما كان يسوع على الارض كان يحارب الأرواح الشريرة غير مبال الأخطار التى كانت تكتنفه وكان ينشر تعاليمه بعمل العجائب والآيات، كإحياء الميت وشفاء الأبرص والأصم والاخرس والأعمى والمريض، وينصر الضعيف على القوى والمظلوم على ظالمه وكان الناس يزدحمون عليه ويعدونه إلها

---

٣١) إنجيل يوحنا الإصحاح الأول من عدد ١، ٣ ورسالة كورنسوس الأولى افسس الإصحاح الثالث العدد ٩

٣٢ « سفر الرؤية الإصحاح الأول العدد ٨

٣٣ « انظر الإنجيل والرسائل ترى كثيرا من هذا الذى ذكرناه

٣٤) كان كرشنة يحب تلميذه ارجونا أكثر من بقية التلاميذ

٣٥) وفى حضور ارجونا بدلت هيئة كرشنة وأضاء وجهه كالشمس ومجد العلى اجتمع فى إله الآلهة فاحنى أرجونا رأسه تذللا ومهابة وتكتف تواضعا وقال باحترام : الآن رأيت حقيقتك كما أنت وأنى أرجو رحمتك يارب الأرباب فعدواظهر فى ناسوتك ثانية أنت المحيط بالملكوت

٣٦) وكان كرشنة خير الناس خلقاً وخلقاً وعلماً باخلاص ونصح وهو الطاهر العفيف مثال الإنسانية وقد تنازل رحمة ووداعة وغسل أرجل البرهميين وهو الكاهن العظيم برهما وهو العزيز القادر ظهر لنا بالناسوت

٣٤) كان يسوع يحب تلميذه يوحنا أكثر من بقية التلاميذ

٣٥) وبعد ستة أيام أخذ يسوع بطرس ويعقوب ويوحنا أخاه وصعد بهم إلى جبل عال منفردين وتغيرت هيئته قدامهم وأضاء وجهه كالشمس وصارت ثيابه بيضاء كالثلج وفيما هو يتكلم إذا سحابة نيرة ظللتهم وصوت من السحابة قائل هذا هو ابن الحبيب الذى سررت له اسمعوا ولما سمع التلاميذ سقطوا على وجوههم وخافوا جدا

٣٦) كان يسوع خير الناس خلقا وعلماً بإخلاص وهو الطاهر العفيف مكمل الإنسانية ومثالها وقد تنازل رحمة ووداعة وغسل أرجل التلاميذ وهو الكاهن العظيم القادر ظهر لنا بالناسوت

---

٣٤) كتاب بها كافات كيتا

٣٥ « كتاب مورس وليمس المدعو « دين الهنود » ص ٢١٥

٣٦) المرجع السابق ص ١٤٤

---

٣٤) إنجيل يوحنا الإصحاح ١٣ العدد ٢٣

٣٥) إنجيل متى الإصحاح ١٧ من عدد ١ إلى ٩

٣٦) إنجيل يوحنا الإصحاح ١٣

٣٧ ـ كرشنة هو برهما العظيم القدوس وظهوره بالناسوت سر من أسراره العجيبة الإلهية

٣٧ ـ يسوع هو يهوه العظيم القدوس وظهوره فى الناسوت سر من أسراره العظيمة الإلهية

٣٨ ـ كرشنة الأقنوم الثانى من الثالوث المقدس عند الهنود الوثنيين القائلين بألوهيته

٣٨ ـ يسوع الأقنوم الثانى من الثالوث المقدس عند النصارى

٣٩ ـ وأمر كرشنة كل من يطلب الإيمان بإخلاص أن يترك أملاكه وكافة ما يشتهيه ويحبه من مجد هذا العالم ويذهب إلى مكان خال من الناس ويجعل تصوره فى الله فقط

٣٩) وأمر يسوع كل من يطلب الإيمان بإخلاص أن يفعل كما يأتى وأما أنت فمتى صليت فادخل إلى مخدعك وأغلق بابك وصل إلى أبيك الذى فى الخفاء فأبوك الذى يرى فى الخفاء يجازيك علانية

٤٠ ـ وقال كرشنة لتلميذه الحبيب أرجونا إنه مهما عملت

٤٠ ـ فاذا كنتم تأكلون أو تشربون أو تفعلون شيئا فافعلوا كل

---

٣٧) فشنو بورانا ص ٤٩٢ عند شرح حاشية عدد ٣

٣٨) كتاب مورس وليمس المدعو العقائد

٣٩) ديانة الهنود الوثنية ص ٢١١

٤٠) مورس وليمس ديانة الهنود الوثنيين ص ٢١١

٣٧) رسالة ثيموثاوس الأولى الإصحاح الثالث

٣٨) انظر كافة كتبهم الدينية وكذلك الأناجيل والرسائل

٣٩) إنجيل متى الإصحاح ٦ عدد ٦

٤٠) رسالة كورنتسوس الأولى الإصحاح العاشر من عدد ١ : ٣

ومهما أعطيت الفقير ومهما أكلت ومهما قربت من قربان مهما فعلت من الأفعال المقدسة فليكن جميعه بإخلاص لى أنا الحكيم والعليم ليس لى ابتداء وأنا الحاكم المسيطر والحافظ

٤١) قال كرشنة أنا علة وجود الكائنات فى كانت وفى تحل وعلى جميع ما فى الكون يتكل وفى يتعلق كاللؤلؤ المنظوم فى خيط

٤٢) وقال كرشنة أنا النور الكائن فى الشمس والقمر وأنا النور الكائن فى اللهب وأنا نور كل ما يضىء ونور الأنوار ليس فى ظلمة

٤٣) قال كرشنة أنا الحافظ للعالم وربه وملجؤه وطريقه

شىء لمجد الله

٤١) من يسوع وفى يسوع وليسوع كل شىء «كل شىء به كان وبغيره لم يكن شىء مما كان»

٤٢) ثم كلمهم يسوع قائلا أنا هو نور العالم من يتبعنى فلا يمشى فى الظلمة

٤٣) قال له يسوع أنا هو الطريق والحق والحياة ليس أحد يأتى الآب إلا بى

---

٤١) مورس وليمس ديانة الهنود الوثنيين ص ٢١٢

٤٢) كتاب موريس وليمس ديانة الهنود ص ٢١٣

٤٣) دوان صفحة ٢٨٣

٤١) إنجيل يوحنا الإصحاح الأول من عدد ٣١

٤٢) إنجيل يوحنا الإصحاح ٨ العدد ١٢

٤٣) إنجيل يوحنا الإصحاح الرابع عشر عدد ٦

٤٤) وقال كرشنة « أناصلاح الصالح وأنا الابتداء والوسط والاخير والأبدى وخالق كل شيء وأنا فناؤه ومهلكه

٤٥) وقال كرشنة لتلميذه الحبيب لاتحزن ياأرجونا من كثرة ذنوبك أنا أخلصك منها فقط. ثق بى وتتوكل على واعبدنى واسجد لى ولا تتصور أحدا سواى لأنك هكذا تأتى إلى المسكن العظيم الذى لا حاجة فيه لضوء الشمس والقمر اللذين نورهما منى

٤٤) وقال يسوع «أنا هو الأول والآخر ولى مفاتيح الهاوية والموت

٤٥) وقال يسوع للمفلوج ثق يا بنى مغفورة لك خطاياك يا بنى أعطنى قلبك والمدينة لاتحتاج إلى شمس ولا إلى قمر ليضيئا فيها الحروف سراجها

---

٤٤) كتاب موريس وليمس ديانة الهنود الوثنيين ص ٢١٣

٤٥) كتاب موريس وليمس ديانة الهنود الوثنيين ص ٢١٣

٤٤) رؤيا يوحنا الإصحاح الأول من عدد ١٧ - ١٨

٤٥) إنجيل متى الإصحاح ٩ عدد ٢ وسفر الأمثال الإصحاح ٢٣ عدد ٢٦ وسفر الرؤيا الإصحاح ١٢ عدد ٢٣

٩ ـ النفس ، خلودها ، وتناسخ الأرواح :

النفس فى نظر البراهمة جوهر خالصصاف عالم مدرك تام العلم والإدراك مادام منفصلا عن الجسد ، فاذا فاض على الجسد واتصل به اعتكر صفاؤه ، ونقص علمه ، ولذا يقول باسديو كما نقل البيرونى « إذا تجردت النفس عن المادة كانت عالمة ، فاذا تلبست بها كانت بكدورتها جاهلة وظنت ، أنها الفاعلة ، وأن أعمال الدنيا معدة لأجلها ، فتمسكت بها ، وانطبعت المحسوسات فيها فإذا فارقت البدن كانت آثار المحسوسات فيها باقية ، فلم تنفصل عنها بالتمام ، وحنت إليها وعادت نحوها

وهذه النظرية التى تقرر أن النفس عالمة قبل اتصالها بالجسم تقارب نظرية أفلاطون فى المثل العليا فى النفس ، وربما كانت أصلا لها ، فالعلم لا يقع فى قبضة أحد ، بل هو يتنقل فى البلاد والأمم تنقل الرياح والأمطار فيها ، لا تقف دونه الحاجزات ، ولا تسد الطريق عليه سدود من حدود وحصون .

١٠ ـ والنفس عندهم خالدة باقية لا يعروها الفناء . ولا يتطرق إليها البلى ، ولقد صرحت بذلك كتبهم ، وهذا ما نقله البيرونى يشهد بما نقول : قال باسديو لأرجن يحرضه على القتال ، وهما بين الصفين : إن كنت بالقضاء السابق مؤمنا فاعلم أنهم ليسوا ، ولا نحن بموتى ولا ذاهبين ذهابا لا رجوع معه ، فإن الأرواح غير مائتة ولا متغيرة ، وإنما تتردد فى الأبدان على تغاير الإنسان من الطفولة إلى الشباب والكهولة ، ثم الشيخوخة التى عقباها موت البدن ، ثم العود له . وقال له أيضا : « كيف يذكر الموت والقتل من عرف أن النفس أبدية الوجود لا عن ولادة ، ولا إلى تلف وعدم ، بل هى ثابتة قائمة ، لا سيف يقطعها ، ولا نار تحرقها ، ولا ماء يغصها ، ولا ريح

ثوبسها ، لكنها تنتقل من بدنها نحو آخر كما يستبدل البدن اللباس إذا خلق ، فما عملك لنفس لا تبيد »

١١ ـ ومن هذا النص يفهم أن عقيدتهم فى النفس أنها لا تبيد ، وأنها تنتقل من جسم إلى جسم ومن ذلك جاء اعتقادهم فى تناسخ الأرواح ، وهو الطابع الذى امتازت به الديانة البرهمة، حتى لقد قال فى ذلك البيرونى : « كما أن الشهادة بكلمة الإخلاص شعار إيمان المسلمين ، والتثليث علامة النصرانية ، والإسبات علامة اليهودية ، كذلك التناسخ علم النحلة الهندية من لم ينتحله لم يك منها »

وقد قامت عقيدة التناسخ عندهم على دعائم ثلاث :

(الدعامة الأولى) اعتقادهم خلود الأرواح .

(الدعامة الثانية) اعتقادهم أن الروح بعد مزاولة الجسم تكون فى حنان دافع إلى الأجسام ، لما انطبع فيها من المحسوسات ، وأثر فيها من الماديات ، وإن كان ذلك التأثير قد عكر صفاءها ، وكدر نقاءها .

(الدعامة الثالثة) أن النفس فى بقائها فى الجسم تحيط علماً بالجزئيات وإن كان علمها بالصورة الكلية ثابتاً لها ، وهى فى تنقلها من جسم إلى جسم تستفيد من كل جسم علما جديداً بجزئيات لم تكن تعلمها ، فليس من المعقول أن تحيط بكل الجزئيات علما ببقائها أمدا قصيرا فى جسم واحد ، ولذلك « احتاجت إلى تتبع الجزئيات واستقراء الممكنات ، وهى وإن كانت متناهية عددها كثير والإتيان على الكثرة وإحصاؤها علماً يحتاج إلى فسحة فى الأمد ، ولذلك لا يحصل ذلك العلم للنفس إلا بمشاهدة الأشخاص والأنواع وما يتناوبها من الأفعال والأحوال ، حتى يحصل لها فى كل واحد تجربة ، وتستفيد بها جديداً فى المعرفة »(١)

لهذا كله كانت الأرواح تنتقل فى الأجسام ، وتنتقل متدرجة فى

(١) ما للهند من مقولة للبيرونى .

الرقى من جسم إلى جسم حتى تصل إلى الكمال المطلق ، وتكون فى صف الروحانيات المتجردة : وهى الملائكة وتكون غير محجوبة عن التصرف فى السموات والأرض ، وتدبير الكون .

وإذا كانت الروح قد ارتكبت خطايا فى أثناء حلولها فى أحد الأجسام أركست فى حيوان دون الذى كانت فيه لتكفر عن خطيئاتها ، وتطهر من سيئاتها ، ثم تسير قدما إلى الرقى ، لا يعوقها عن بلوغ أوجه إلا خطايا تتأثم بها ، ثم تتطهر . وتستمر كذلك حتى تصل إلى الملكوت الأعلى مع الملائكة فى أعلى عليين ، وتتجرد من الغلاف الجسمى ، وقد يكون تدرجها إلى أدنى ، فتهوى إلى جهنم على حسب الأقوال عندهم .

ولعقيدة التناسخ ، التى استولت على الفكر الهندى وأثرت فيه - كانوا يعتقدون أن الروح الواحدة تحل فى عدة من الأجسام ، وأن الشخص قد تكون روحه قد حلت فى مئات الأجسام قبله ، يحكى البيرونى عن ملك من ملوكهم « أنه رسم لقومه أن يحرقوا جثته بعد موته فى موضع لم يحرق فيه ميت قط ، وأنهم طلبوا موضعا كذلك ، فأعياهم ، حتى وجدوا صخرة من البحر ناتئة ، فظنوا أنهم ظفروا بالبغية ، فقال لهم باسديو : إن هذا الملك أحرق على هذه الصخرة مرات كثيرة فافعلوا ما تريدون ، فإنما قصد إعلامكم وقد قضيت حاجته » .

١٢ - نظام الطبقات فى الديانة الهندية :

الناس فى نظر الديانة البرهمية ليسوا سواء ، لا من حيث العبادة أو الزهادة أو طلب الزلفى ، بل هم مختلفون من حيث الطبقات والأعمال وما يمتهنون من مهن ، فقد قسم الناس فيها من حيث مهنهم وأصولهم وأنسابهم إلى أربع طبقات :

الطبقة الأولى ، وهى أسماها طبقة البراهمة ، وهم رجال الدين

الذين يبينون أحكامه، ويذكرون قضاياه، ويزعمون أنهم خلقوا من رأس الإله براهما ؛ ولذلك كانوا أعلى الناس وخلاصة الجنس البشرى ، وعقله المفكر ورأسه المدبر ، وذلك لأن الرأس فى الجسم عنوان ذلك كله ، فهو علاوة الجسم ، وموضع التدبير فيه .

(والطبقة الثانية) طبقة الجند ويسميهم البيرونى كشتر ، ويزعمون أنهم خلقوا من مناكب براهما ويديه ، وهم لهذا الحماة والغزاة والقوة ، ومرتبتهم دون مرتبة البراهمة وهى المرتبة التى تليها .

(والطبقة الثالثة) طبقة الزراع والتجار، وهم مخلوقون من ركبتى الإله براهما فى زعمهم ، وتسمى (بيش) والمسافة بينهم وبين الطبقة التى تسبقهم كبيرة جدا ، وقريبة من الطبقة التى تليهم .

(الطبقة الرابعة) وهى طبقة الخدم والأسارى ؛ وهؤلاء خلقوا فيما يزعمون من قدمى الإله « براهما » وتسمى (شودر) .

١٣ - ولكل طبقة من هذه الطبقات آداب خاصة تتحلى بها، فيجب على البرهمى أن يكون وافر العقل، ساكن القلب ، صادق اللهجة، ظاهر الاحتمال ضابطا للحواس ، مؤثرا للعدل ، بادى النظافة ، مقبلا على العيادة ، مصروف الهمة إلى الديانة .

ويجب أن يكون (الجندى كشتر) « مهيبا شجاعا معظما ذلق اللسان سمح اليد ، غير مبال بالشدائد ، حريصا على تيسير الخطوب » .

ويجب أن يكون الزراع والتجار مشتغلين بالزراعة ويراعوا العناية بالسوائم والقيام بشئون التجارة ، وما تقتضيه من معرفة بشئون الاسواق وما تقتضيه من صفق فى البياعات وتمرس بشئونها وتتبع لها .

ويجب أن يكون الخدم والأسارى مجتهدين فى الخدمة والتماق إلى الناس، والتحبب إليهم ، لأن ذلك أليق الآداب بهم وهو الذى يتفق مع عملهم.

ويقول البيرونى بعد بيان الآداب الواجبة لكل طبقة : « وكل من هؤلاء إذا ثبت على رسمه وعادته نال الخير فى إرادته إذا كان غير مقصر

فى عبادة الله ،غير ناس ذكره فى جل أعماله، وإذا انتقل عما عهد إليه إلى ما عهد إلى طبقة أخرى ، وإن شرفت عليه كان آثما بالتعدى فى الأمر

١٤) وعلى ذلك تكون كل طبقة ليس لها أن تعدو حالها إلى حال طبقة أخرى ، فالزراع لايصح أن يكونوا من التجار ، والجند لايرتقون إلى درجة الكهنة ، وهكذا . وكل طبقة تنتقل حالها إلى الأعقاب والأخلاف ، فالطبقة تورث من الشخص إلى غيره من عقبه .

ويظهر أن التقسيم الأول عند الفتح كان ملاحظا فيه الجنسية ، فهو تقسيم جنس أكثر منه تقسيم للعمل ، ولذلك يقول البيرونى : إنهم يسمون طبقاتهم «برن» ومعناها الألوان ، ويسمونها أيضا (جاتك) ومعناها المواليد ، فالأصل إذن فى الطبقات تقسيم جنسى ، وتنقل إلى الأعقاب بالولادة ، والأنساب .

وهناك دون هذه الطبقات الأربع طبقات المحرومين ، وأبناء الزنى ، والذين يتناولون الأعمال القذرة فى المدن ، والأعمال الحقيرة ، ويسمون من ليسوا من الهند « امليج » ومعناها أنجاس .

والمحرومون وأبناء الزنى والانجاس فى طبقة دون الطبقات الاربع جميعا ، ولا يتساوون أبدا إلى واحدة منها ، ويعتبرون هم والطبقة الرابعة منبوذين .

١٥) هذا . وكل طبقة ليس لها أن تتناول من أبواب العبادة مايتناوله الآخر ، فللبرهمى عبادته الخاصة به وطرقه .

بل إن البرهمى له باعتبار السن أحوال أربع ، ولكل سن حال خاصة بها ، فالدرجة الأولى درجة التلمذة التى يتلقى فيها علوم البراهمة ويأخذه أستاذه ببعض آدابهم ، لدرجة الثانية أن يكون رب أسرة ، وتبتدىء من الخامسة والعشرين ، وفيها يعنى بتكوين بيت له ، ويختار له زوجا من طبقته ، والدرجة الثالثة درجة النسك والعبادة

يهيم فيها فى الغابات والأحراش ، وينال فيها من ثمر الأشجار وبعض الأعشاب ، ومتى جاز هذه الدرجة بنجاح تام وبلغ سنها المعينة انتقل إلى أسمى الدرجات ، وهى درجة الفقير ، فيخرج من حكم الجسد ، وتحكم فيه الروح فقط ويقرب من الآلهة .

١٦) وهنا يثار نظر الناس فى المنزلة الدينية أهى كذلك ؟ أم تلك المنازل دنيوية أقرها الدين لتنظيم المجتمع فى الدنيا ، وهم أمام الدين فى الخلاص سواء ؟ مما لاشك فيه أن تلك المنازل لها أثرها الدينى فى المعاملة فى الدنيا ، فالبرهمى له أن يقرأ كتبهم المقدسة ، ويتعلمها ويعلمها للناس ، والمحاربون لهم فقط أن يقرءوها ويتعلموها ، وليس لهم أن يعلموها ، فذلك ليس من عملهم فى شيء ، لأنهم خصصوا للجهادوالدفاع ، والزراع والتجار والخدم ليس لهم أن يقرءوا كتبهم ولا أن يتعلموها ، بل إن ثبت أنهم فعلوا شيئا من ذلك رفعت البراهمة الأمر إلى الوالى فقطع لسان من فعل .

وأما كل أعمال البرغير ماذكرنا ، وغير تقديم قرابين النار ، فهو غير ممنوع عن طبقة من الطبقات .

وقد اختلفت عباراتهم فى الخلاص الذى هو أعلى الدرجات ثوابا : أهو خاص بالبراهمة والفقراء أم يعم الجميع ؟ فبعضهم يمنع من الخلاص الطبقتين السفليين ، ولكن الأكثرين على أن الخلاص ثواب الجميع ، ولقد قال باسديو فى طالب الخلاص : « إن العقل قد سوى عنده البرهمى وجندال (١) والصديق والعدو ، والأمين والخائن ، بل الحية وابن عرس ؛ فإن كان العقل هو الذى سوى فالجهل هو الذى فصل وفضل » .

(١) طبقة من أدنى طبقات الطبقة الرابعة .

١٤ — الحياة الآخرة : من عادات الهنود الدينية أن أجسام أكابرهم تحرق بعد الموت ، وذلك لأن النار فى اشتعالها تعلو شعلتها إلى أعلى بخط عمودى على أفق الأرض ، والعمود أقـــرب المستقيمات بين السطوح والخطوط ، ولذا تتجه الروح بهذا الاحتراق إلى أعلى ،سائرة باتجاه عمودى، فتصعد إلى السماء فى الملكوت الأعلى فى أقرب زمن .هذا سبب من أسباب حرق أجسام كبرائهم بعد موتهم . وهناك سبب آخر ، هو أن فى الاحتراق تخليصا للروح من غلاف الجسم تخليصا تاما ، وذلك أن فى الجسم نقطة بها يكون الإنسان ، وهى متأشبة بالجسم متصلة به ، فلا تخلص منه إلا باحتراق أمشاجه وصيرورتها ذرات صغيرة بالاحتراق ، فعندئذ تتخلص تلك النقطة وهى معنى الإنسان ، وبتخلصها تتخلص الروح من الجسم ، وتعلو عنه لتتصل بجسم آخر أو لتسمو إلى درجة الملائكة ، إن كانت قد وصلت إلى درجة الخلاص .

١٥ — وإذا تخلصت الروح من الجسم كان أمامها ثلاثة عوالم: أولها العالم الأعلى ، وهو عالم الملائكة ، تصعد إليه الروح إن كانت بعملها تستأهل الصعود إليه ، والخلاص من الجسم ، والسمو إلى الملكوت الأعلى ، والعالم الثانى عالم الناس ، وهو عالمنا الحاضر معشر الآدميين ، والنفس تعود إليه بالحلول فى جسم إنسانى آخر لتكتسب عمل خير ، ولتجتنب عمل شر ، إذا كانت أعمالها فى الجسم الأول لا ترفعها إلى مراتب التقديس فى أعلى عليين ، ولا تنزل بها إلى أسفل سافلين فى العالم الثالث وهو عالم جهنم ، وهذا العالم يكون لمرتكبى الخطايا الواقعين فى الذنوب ، وليس هناك جهنم واحدة ، بل لكل أصحاب ذنب جهنم خاصة بهم ، فالمدعون على غيرهم حقوقا كاذبة وشهود الزور لهم جهنم خاصة بهم ، وسافك الدم وغاصب حقوق الناس والمغير عليهم وقاتل البقر لهم جهنم خاصة بهم ،وقاتل البرهمى وسارق الذهب ومن صحب الأمراء الذين لا ينظرون إلى رعاياهم لهم جهنم خاصة ، والذى يرد قول أستاذه ولا يرضاه ، ويستخف بالناس ويستهين

بالكتب المقدسة أو يكتسب بها فى الأسواق لهم جهنم أيضاً خاصة ، وهكذا لكل صنف من الآثمين جهنم بمقدار يتناسب مع ذنبهم ، ومقدار ما فيهم من فسوق عن الدين وخروج من حظيرته .

ثم هل جهنم دائمة وكذلك الجنة ؟ منهم من يرى أن الجنة نزلها دائم ، وأن الجحيم كذلك ، وأنها للجنة أبداً أو الجحيم أبداً ، على مقدار ما قدم الشخص من عمل ، فإن كان العمل فى الحياة لا يرفع إلى الجنة ولا ينزل إلى الجحيم أعيدت الروح إلى جسم آخر ، لتعمل ما يعليها أو يرديها .

ومنهم من يرى أن طريق الاكتساب هى الإنسانية وحدها ، وأن التردد فيها مكافأة قاصرة عن درجة الثواب والعقاب الأخروى ، أما الجنة فإنها فى علوها تكون للنعيم الذى يستحقه من قدم عملا حسناً ، ويكون البقاء فيها إلى أمد محدود ، وإذا كان العمل الإنسانى إثما وخطيئة تردت روح الشخص فى الحيوان والنبات وعقابا لها على ما اجترحت من سيئا وقدمت من خطايا ، وبقيت فى ذلك أبداً حتى تتطهر مما اجترحت ، وليست جهنم إلا هذا التردى عند هؤلاء . فالجنة والجحيم ليستا ابديتين عند هؤلاء ، بل هما مؤقتان بهذا التأقيت بعدها تصعد الروح درجة إلى العالم العلوى أو تنزل إلى المرتبة الإنسانية .

وكلا الرأيين يسير على مناهج تناسخ الأرواح ، وإن اختلفت أنظارهم فيه ، ومهما يكن من خلاف فى هذا المقام فالمتفق عليه أن البعث فى العالم الآخرى إنما هو للأرواح لا للأجساد . فالروح إما فى روح أو ريحان ، وإما فى شقوة وجحيم على نحو ما بينا .

١٦ — كتبهم : أقدم كتبهم الفيدا ، ولم يعرف المؤرخون عصر كتابتها على وجه التحقيق والضبط ، وأقصى ما تأكد لديهم أن الفيدا كانت موجودة قبل خمسة عشر قرنا . فقد كانت مع الفاتحين الآريين على أنها من

أصول ديانتهم والفيدا مجموعة من الأشعار ليس فى كلام الناس ما يماثلها فى زعمهم ، ويقول جماهيرهم إن البشر يعجزون عن أن يأتوا بأمثالها .ويقول البيرونى:إن خاصتهم يقولون إن فى مقدورهم أن يأتوا بمثلها ، ولكنهم ممنوعون من ذلك احتراما لها ، ولم يبين لنا البيرونى وجه المنع ، أهو منع بمعنى التحريم ، بمعنى أن فى استطاعتهم أن يتجهوا إلى الإتيان بمثلها وأن يأتوا بالفعل ، ولكنهم كلفوا ألا يأتوا فهم يمتنعون إجابة لهذا التكليف ؟ أم أن هذا المنع إنما هو صرف لهم عن أن يأتوا بمثلها فهم فى قدرهم أن يأتوا ولكنهم صرفوا عن ذلك . كما يقول بعض الجهلاء فى إعجاز القرآن الكريم؟ فان من الناس من يزعم جهلا بالقرآن أو إلحادا فيه أن العرب كان فى استطاعتهم أن يأتوا بمثل القرآن ، ولكن الله سبحانه وتعالى قد صرفهم عن ذلك صرفا ، فإعجازه ليس لما فيه ولكن لأن الله سبحانه أعجز القدر عن الإتيان بمثله . (١) لم يبين لنا البيرونى أى الوجهين أراد بالمنع ، لئن أراد الأول لا يمنع ألا يوجد ما يماثلها ، لأنه عسى أن يكون ممن يعصون التكليف من يأتى بأمثالها بل يضيف إليها ؛ لأن الناس ليسوا معصومين من المخالفة . وما أظن أحدا من البراهمة يعتقد جواز وجود أمثالها، لذلك نرجح أن يكون المراد هو الثانى لا الأول .

والفيدا أربع مجموعات لكل واحدة منها نهج خاص فى القراءة وتلحين خاص فى الإلقاء ، ومواضع لا يتلى فيها غيرها ، ولا يرتل فيها سوى نوع خاص من بينها . وأولها نوع يقال له « الرجفيدا » وعلى حد تعبير البيرونى « الركبذ » وله ثلاثة مناهج للتلاوة ، ويرتل عند تقديم قرابين النار . وثانيها

---

(١) وقد أشبع عبد القاهر والباقلانى وغيرهم من كبار الكتاب فى القرون الغابرة أصحاب تلك النحلة الباطلة نقدا وردا مما لا يترك مقالا لقائل .

ويقال له « الياجورفيدا » ويسميه البيرونى « جزربيذ » والفرق بينه وبين الأول فى النغم والتلحين ، وإن كان مثله يقال عند تقديم القرابين . وثالثها « السامافيدا » ويسميه البيرونى « سام بيذ » وله نغم أيضاً خاص به ويرتل عند صنع الشراب المقدس وتناوله.ورابعها « الأثارفيد » ويسميه البيرونى « أثر بيذ » ويتلى عند السحر والتعاويذ وله لحن خاص به .

ويحكون لكل مجموعة من هذه الأشعار أسطورة كانت سبباً لتنزيله كما يزعمون ، وترتيل هذه القصائد لايصح من غير البراهمة والغزاة على ماسبق

١٧ — ولهم كتب غير هذه تسمى البرهميات ويسميها البيرونى «البيرانات» وهى كتب من منثور القول لا من منظومه كالفيدا وهى أقسام كثيرة ، وموضوعاتها مختلفة . فمنها ما فيه أحكام شريعتهم وفقه ملتهم من حث على الخلاص، وترغيب فى فداء الروح بالجسم وغير ذلك . ومنها ماهو خاص بالمطالعات التى يطالعها النساك الذين ينسآبون فى الأحراش ويرغبون فى التخلص بالفعل من المادة، لينعموا بحرية الروح ، فيطالعون تلك الكتب لتقوى عزائمهم ويستحفظونها ليعطوا العلم الباطنى بالروح الأكبر. وترتبط نفوسهم بالموجود الأعظم.ومنها كتب فى أصول عقائدهم قد ذكرت فيها نشأة العالم وكيف نشأ ثم كيف ظهرت آلهتهم التى يزعمونها ، وكيف وجدت المخلوقات وكيف وجد الإنسان وكيف كانت خواصه، وكيف تكون المعرفة وغير ذلك من المعلومات التى تتصل بآلهتهم وبالإنسان ونفسه وعلاقته بالآلهة والكون .

هذه إلمامة موجزة نرجو أن تكون موضحة للديانة البراهمية ، ونظمها وكتبها ، ونشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله وأن الدين عند الله الإسلام .

البــوذية

١ — نشأت الديانة البوذية بالهند كما حلت البرهمية فيها ، وقد كان منشئها برهميا ، وهى فى الواقع تخفيف لما جاء فى البرهمية من تعاليم وإزالة لما أحدثته البرهمية من تفريق بين الناس يتوارث بينهم خلفا عن سلف ، فلا يمحوه كر الغداة ومر العشى ، بل ينتقل بالوراثة كما ينقل الدم ، ويولد مع الشخص ويلازمه وهو فى المهد .

ومنشىء تلك الديانة هو « بوذا » واسمه سدائنا واسم أسرته جوتاما وأحياناً يطلق عليه اسم أسرته. أما بوذا فلقب له ومعناه العالم .

ويلقب أيضاً بسكياموني ومعناه المعتكف من أسرة سكيا .

ولد بوذا قبل المسيح بنحو ٥٦٠ سنة فى بلدة على حدود نيبال . وكان من أسرة نبيلة وفيها إمارة وكان هو أميرا . وقد شب مترفا فى النعيم فاكها فى الثروة، وتزوج فى التاسعة عشرة من عمره ، وأقام أمدا فى حياة زوجية يشتار عسلها وينعم فى ظلها، حتى إذا بلغ التاسعة والعشرين انصرف إلى الزهد والتأمل وهجر زوجه وخرج هائماً فى الأحراش والغابات راغباً عن الدنيا تاركا ملاذها، غير معنى إلا بالتأملات رائضاً نفسه على خشونة الحياة وجشب العيش .

وأقام على ذلك ست سنين دأبا ، لا يضعف ولا ينى ، حتى إذا بلغ السادسة والثلاثين من عمره أحس بأن نوعا من المعرفة قد أشرق فى نفسه ، وقذف بنور فى قلبه وصارت تلك الحال التى أخذ نفسه بها مذهبا يجب أن يدعو إليه بقوله وعمله ، ولم يبال بعقبات تكأد طريقه ، ولا

بصعوبات تدعثر سبيله ، فالتف به شيب وشاب ، وصارله تلاميذ يدعون بدعايته ، وانبعثوا فى الآفاق دعاة مرشدين ، واستمر عددهم ينمى وخبرهم يذيع ، ومذاهبهم فى الحياة ينتشر ، وبوذا من ورائهم ومعهم لا يكل ولا يمل ، حتى مات فى الثمانين من عمره. فكأن مدة دعايته مكثت على ذلك أربعا وأربعين سنة أو تزيد ، وفيها عما المذهب وزاد أنصاره وكثروا وانسابوا فى البلاد دعاة بالقول والعمل . ولم يكن بوذا معنيا بتأليف الكتب بل كان معنيا بكثرة الوصايا والإرشاد العملى .

٢ — حياة ساذجة لا تعقد فيها ولا تزيد ، ولكن يأبى الذين جاءوا من بعده إلا أن يحوطوها بشتى الأساطير ،أوحت بها الأوهام ، ودفعت إليها أخيلة خصبة ، فقد زعموا أن أمه بشرت به فى المنام ، وأن ولادته سبقتها معجزات ، وأن الأله حل فيه ، وأن حياته كلها قد أحيطت بالمعجزات ، وهكذا من الأوصاف التى انتهوا بها إلى أنه هو المنقذ المعزى ، والذى قدم نفسه فداء للخليقة من الخطايا . وقد كثرت هذه الأوهام عند البوذيين الذين يسكنون فى التبت فى الشمال ،أما أهل الجنوب(١) .وهم يبلغون نحو أربعمائة مليون فلم ترج كثيراً بينهم هذه الخرافات ، وتلك الأوهام . ومن الغريب أن الأوهام التى جعلها بوذيو التبت أوصافا لبوذا تتوافق مع ما ينحله المسيحيون شخصية المسيح بعد تغيير النصرانية ، وهاهى ذى بعض المقابلات بينهما لتعرف وجه التطابق .(٢)

---

(١) يلاحظ أن البوذية التى نشأت بالهند أكثر معتنقيها فى الصين واليابان .

(٢) منقولة من كتاب « العقائد الوثنية فى الديانة النصرانية » .

أقوال الهنود الوثنيين فى بوذا ابن الله	أقوال النصارى المسيحيين فى المسيح ابن الله
١) كان تجسد بوذا بواسطة حلول روح القدس على العذراء مايا	١) كان تجسد يسوع المسيح بواسطة حلول الروح القدس على العذراء مريم
٢) لما نزل بوذا من مقعد الأرواح ودخل فى جسد العذراء مايا صار رحمها كالبلور الشفاف النقى وظهر بوذا فيه كزهرة جميلة	٢) لما نزل يسوع من مقعده السماوى ودخل فى جسد مريم العذراء صار رحمها كالبلور الشفاف النقى وظهر فيه يسوع كزهرة جميلة
٣) وقد دل على ولادة بوذا نجم ظهر فى أفق السماء ويدعونه « نجم بوذا »	٣) وقد دل على ولادة يسوع نجم ظهر فى المشرق وقال دوان: من الواجبات أن يدعى « نجم المسيح »
٤) لما ولد بوذا فرحت جنود السماء ورتلت الملائكة أناشيد المجد للمولود المبارك قائلين: ولد اليوم بوذا على الأرض كى يعطى الناس المسرات والسلام ويرسل النور إلى المحلات المظلمة ويهب بصرا للعمى	٤) لما ولد يسوع فرحت ملائكة السماء والأرض ورتلوا الأناشيد حمدا للواحد المبارك قائلين المجد لله فى الأعالى وعلى الأرض السلام وبالناس المسرة
٥) وعرف الحكماء بوذا وأدركوا	٥) وقد زار الحكماء يسوع

٥ ـ دوان ص ٢٩٠

٥ ـ إنجيل متى الإصحاح الثانى من عدد ١ إلى ١١

أسرار لاهوته ولم يمض يوم على ولادته حتى حياه الناس ودعوه إلها

٦) وأهدوا بوذا وهو طفل هدايا من مجوهرات وغيرها من الأشياء الثمينة

٧) لما كان بوذا طفلا قال لأمه مايا إنه أعظم الناس جميعاً

٨) كان بوذا ولدا مخيفا وقد سعى الملك بميسارا وراء قتله لما أخبروه أن هذا الغلام سينزع الملك من يده إن بقي حياً

٩) لما أرسل بوذا إلى المدرسة أدهش الأساتذة مع أنه لم يدرس

---

٦ - دوان ص ٢٩٠

٧ - كتاب هردى المدعو العقائد البوذية ص ١٤٥ ، ١٤٦

٨ - كتاب تاريخ البوذية تأليف نيل ص ١٠٣ ، ١٠٤

٩ - كتاب هردى « العقائد البوذية » وتاريخ الديانة البوذية لنيل

وأدركوا أسرار لاهوته ولم يمض يوم على ولادته حتى دعوه إله الآلهة

٦) وأهدوا يسوع وهو طفل هدايا من ذهب وطيب ومر

٧) لما كان يسوع طفلا قال لأمه مريم (أنا ابن الله)

٨) كان يسوع ولدا مخيفا سعى الملك هيرودوس وراء قتله كيلا ينزع الملك من يده

٩) لما أرسل يسوع إلى المدرسة أدهش أستاذه ذاخيوس وقال لأبيه

---

٦ - إنجيل متى من الإصحاح ٢ عدد ١١

٧ - إنجيل الطفولية الإصحاح ١ عدد ٣

٨ - إنجيل متى الإصحاح الثانى العدد الأول

٩ - إنجيل الطفولية الإصحاح ٢٠ عدد وإنجيل لوقا

من قبل وفاق الجميع فى الكتابة والرياضيات والعلوم العقلية والهندسية والتنجيم والكهانة والعرافة

١٠) لما صار عمر بوذا اثنتى عشرة سنة دخل الهياكل وصار يسأل أهل العلم مسائل عويصة ثم يوضحها لهم حتى فاق كافة مناظريه

١١) ودخل بوذا مرة أحد الهياكل فقامت الأصنام من أماكنها وتمددت عند رجليه سجودا له

١٢) ويصلون نسب كوتاما بوذا من أبيه « صدودانا » فى أناس كلهم من سلالة ملوكانية إلى ماها سماطا وهو على زعمهم أول ملك صار فى الدنيا . والحوادث والأنساب المذكورة فى كتاب « بيوراز » البرهمى

---

١٠ ـ بنصن « الملاك المسيح » ص ٣٧

١١ ـ بنصن « الملاك المسيح » ٦٧ إلى ٦٩

١٢ ـ دوان ص ٢٩١

يوسف « لقد أتيتنى بولد لأعلمه مع أنه أعلم من كل معلم »

١٠) لما صار عمر يسوع اثنتى عشرة سنة جاءوا به إلى أورشليم وصار يسأل الأحبار والعلماء مسائل مهمة ثم يوضحها لهم وأدهش الجميع

١١) وكان يسوع مارا قرب حاملى الأعلام فأحنت الأعلام رؤوسها سجودا له

١٢) ويعدون سلالة يسوع من أبيه يوسف فى أشخاص مختلفين وكلهم من سلالة ملوكانية إلى آدم أبى البشر وكثير من الأسماء والحوادث المذكورة فى سلالته مذكورة فى التوراة كتاب اليهود .

---

١٠ ـ إنجيل الطفولية الإصحاح ٢١ عدد ٢١

١١ ـ إنجيل نيكوديموس الإصحاح الأول العدد ٢٠

ووُجد فى أنسابه غير أنه لا يمكن تحقيق الحوادث ونسبتها مع غيرها وسبب ذلك هو أن مؤرخى البوذية اخترعوا فيها أسماء تمكنهم من إعلاء نسب حكيمهم فوق اعتبارهم إياه إلها

١٣) لما عز بوذا على السياحة قصد التعبد والتنسك وظهر عليه «مارا» «أى الشيطان» كى يجربه

١٤) وقال مارا «الشيطان» لبوذا لاتصرف حياتك فى الأعمال الدينية لأنك بمدة سبعة أيام تصير ملك الدنيا

١٥) فلم يعبأ بوذا بكلام الشيطان بل قال له اذهب عنى

١٣) لما شرع يسوع فى التبشير ظهر له الشيطان كى يجربه

١٤) وقال « أى إبليس » له (أى يسوع) أعطيك هذه «أى الدنيا» جميعها إن خررت وسجدت لى

١٥) فأجابه المسيح وقال اذهب ياشيطان

---

١٣ ـ دوان ص ٢٩٢

١٤ ـ دوان ص ٢٩٢

١٥ ـ دوان ص ٢٩٢

---

١٣ ـ إنجيل متى الإصحاح ٤ عدد ١ : ٨

١٤ ـ إنجيل متى الإصحاح ٤ من ١٠ ـ ١١

٢٥) إنجيل لوقا الإصحاح ٤ عدد ٨

١٩) ولما ترك مارا أى الشيطان، تجربة بوذا أمطرت السماء زهرا وطيبا ملأ الهواء طيب عرفه

١٧) وصام بوذا وقتا طويلا

١٨) وقد عمد بوذا المخلص حين عمادته بالماء وكان روح الله حاضراً وهو لم يكن الإله العظيم فقط بل وروح القدس الذى فيه صار تجسد كوتاما لما حل على العذراء مايا

١٩) ولما كان بوذا على الأرض فى أواخر أيامه بدلت هيئته وهو إذ ذاك على جبل « بنـــدافا » أى الأصفر المبيض فى «سيلان» ونزل عليه بغتة نور أحاط برأسه على شكل

١٦) ثم تركه إبليس وإذا ملائكة قد جاءت فصارت تخدمه

١٧) وصام يسوع وقتا طويلا

١٨) ويوحنا عمد يسوع بنهر الأردن وكانت روح الله حاضرة وهو لم يكن الإله العظيم فقط بل والروح القدس الذى فيه تم تجسده عند ماحل بالعذراء مريم فهو الآب والابن وروح القدس

١٩) لما كان يسوع على الأرض بدلت هيئته « وبعد ستة أيام أخذ يسوع بطرس ويعقوب ويوحنا أخاه وصعد بهم إلى جبل عال منفردين وتغيرت هيئته قدامهم وأضاء وجهه

---

١٦) دوان ص ٢٩٢

١٧) دوان ص ٢٩٢

١٨) كتاب الملاك المسيح ص٤٥ تأليف بنصن

١٩) كتاب الملاك المسيح ص٤٥

١٦) إنجيل متى الإصحاح ٤ عدد ١١

١٧) إنجيل متى الإصحاح ٤ عدد ٢

١٨ - إنجيل متى الإصحاح ٧ عدد ١ ، ٢

الكليل ويقولون إن جسده أضاء منه نور عظيم وصار كتمثال من ذهب براق مضيء كالشمس أو كالقمر وحينئذ تحول إلى ثلاثة أقسام مضيئة وحينما رأى الحاضرون هذا التحول فى هيئته قالوا ما هذا بشرا إن هو إلا إله عظيم

كالشمس وصارت ثيابه بيضاء كالنور

٢٠) وعمل بوذا عجائب وآيات مدهشة لخير الناس وكافة القصص المختصة فيه حاوية لذكرى أعظم العجائب مما يمكن تصوره

٢٠) وعمل يسوع عجائب وآيات مدهشة لخير الناس وكافة القصص المختصة فيه حاوية لذكرى أعظم العجائب مما يمكن تصوره

٢١) وفى صلاتهم لبوذا يتأمل المؤمنون به دخول الفردوس

٢١) وفى صلاتهم ليسوع يتأمل المؤمنون بألوهيته دخول الفردوس

٢٢) لما مات بوذا ودفن انحلت الأكفان وفتح غطاء التابوت بقوة غير طبيعية « أى بقوة إلهية »

٢٢) لما مات يسوع ودفن انحلت الأكفان وفتح القبر بقوة إلهية

---

٢٠ ـ دوان ص ٢٩٣

٢١) دوان ص ٢٩٣

٢٢) كتاب بنصن الملاك المسيح

٢٠ ـ إنجيل متى الإصحاح ٨ عدد ٢٨ ـ ٣٤ وغيره

٢١ ـ دوان ص ٢٩٣

٢٢ ـ إنجيل متى الإصحاح ٢٨ وإنجيل يوحنا الإصحاح ٢٠

٣٣) وصعد بوذا إلى السماء بجسده لما أكمل عمله على الأرض	٢٣) وصعد يسوع بجسده إلى السماء من بعد صلبه لما كمل عمله فى الأرض
٢٤) ولسوف يأتى بوذا مرة ثانية إلى الأرض ويعيد السلام والبركة فيها	٢٤) ولسوف يأتى يسوع مرة ثانية إلى الأرض ويعيد السلام والبركة فيها
٢٥) وسيدين بوذا الأموات	٢٥) وسيدين يسوع الأموات
٢٦) بوذا الألف والباء ليس له انتهاء وهو الكائن العظيم ، والواحد الأزلى	٢٦) يسوع الألف والباء ليس له انتهاء وهو الكائن العظيم ، والواحد الأبدى
٢٧) قال بوذا فلتكن الذنوب التى ارتكبت فى هذه الدنيا على ، ليخلص العالم من الخطيئة	٢٧) يسوع هو مخاص العالم وكافة الذنوب التى ارتكبت فى العالم تقع عايه عن الذين اقترفوها ، ويخلص العالم

٢٣ ـ دوان ص ٢٩٣	٢٣ ـ أعمال الرسل الإصحاح الأول عدد ١ـ١٢
٢٤) دوان ص ٢٩٣	٢٤ ـ أعمال الرسل الإصحاح الأول
٢٥) دوان ٢٩٣	٢٥) إنجيل متى الإصحاح ٦ عدد ٢٢
٢٦) دوان ص ٢٩٣	٢٦) إنجيل يوحنا الإصحاح ١ عدد ١
٢٧) كتاب مولر المدعو تاريخ الآداب السنسكريتية ص ٨٠	٢٧ ـ دوان ص ٢٩٣ وكذلك التعليم المسيحى

٢٨) قال بوذا .أخفوا الأعمال الحسنة التى تفعلونها ، واعترفوا بذنوبكم علانية

٢٩) ويصفون بوذا أنه ذات من نور غير طبيعيـــة والشرير مارا ، ويدعونه أيضاً الحية ، ذات مظلمة غير طبيعية

٣٠) وفى أحد الأيام التقى أناندا تلميذ بوذا وهو سائر فى البلاد بالمرأة (مناجى) وهى من سبط الـكندلاس المرذولين قرب بئر ماء ، فطلب منها قليلا من المـاء فأخبرته عن سبطها وأنه لايجوز له أن يقترب منه ، لأنها من سبط محتقر ، فقال لها ياأختى إنى لم أسألك عن سبطك وعن عائلتك، إنما سألتك شربة ماء فصارت من ذاك الحين تلميذة بوذية

٢٨) قال يسوع أخفوا الأعمال الحسنة التى تفعلونها ، واعترفوا بذنوبكم علانية

٢٩) ويصفون يسوع أنه ذات من نور غير طبيعية، شمس بر وعدوه الشيطان الحية القديمة

٣٠) وفى أحد الأيام قعد يسوع قرب بئر ماء بعد ماسار مسافة ، حتى كاد ينهكه التعب ، وبينما هو قرب البئر عند مدينة السامرة أتت امرأة سامرية لتملأ جرتها من البئر ، فقال لها يسوع اسقينى شربة ماء فقالت له المـرأة السامرية أنت يهودى وكيف تطلب منى شربة ماء فإن اليهود لا يستحلون معاملة السامريين

---

٢٨ ـ مولر كتابه المدعو العلوم الدينية ص٢٨

٢٩ ـ بنصن الملاك المسيح ص٣٩ ودوران ص٢٩٤

٣٠) كتاب مولر المدعو العلوم الدينية ص ١٤٠

٢٨) إنجيل متى الإصحاح ٦ عدد ١ ورسالة يعقوب

٢٩) إنجيل يوحنا الإصحاح ٤ العدد ١ وإنجيل لوقا

٣٠) إنجيل يوحنا الإصحاح ٤ عدد ١ : ١١

٣١) قال بوذا إنه لم يأت لينقض الناموس كلا بل أتى ليكمله وقد سره عد نفسه حلقة فى سلسلة المعلمين الحكماء.

٣١) قال يسوع لاتظنوا أنى جئت لأنقض الناموس أو الأنبياء، ما جئت لأنقض بل لأكمل

٣٢) وبحسب تعليم بوذا يجب أن تكون كافة أعمالنا مع أهلنا وجيراننا بالمحبة والحسنى

٣٢) وقال يسوع أحبوا أعداءكم، باركوا لاعنيكم، أحسنوا إلى مبغضيكم

٣٣) وفى أوائل أيام بوذا التى علم وبشر فيها ذهب إلى مدينة بينارس وعلم فيها فتبعه كوندينا ثم تبعه أربعة رجال آخرين وصاروا جميعهم تلامذة له، ومن ذلك الحين صار أينما علم وكرز يتبعه رجال ونساء كثيرون ويصيرون من أتباعه وتلاميذه

٣٣) وفى أوائل أيام يسوع التى علم وبشر فيها ذهب إلى مدينة كفر ناحوم وعلم فيها فتبعه من ذاك الحين أربعة رجال صيادين وصاروا تلاميذ له ومن هذا الحين صار أينما كرز يتبعه رجال ونساء كثيرون يؤمنون به

٣٤) وقال بوذا للذين صاروا

٣٤) وقال يسوع للذين صاروا

---

٣١ - كتاب بنصن الملاك المسيح ص ٤٧، ٤٨

٣٤ - هاردى فى كتابه المدعو الرهبانية فى الشرق ص ٥، ٦٢

٣١ - إنجيل متى الإصحاح ٥ عدد ١٧

٣٢ - إنجيل متى الإصحاح ٥ عدد ٤٤

٣٣ - إنجيل متى الإصحاح ٤ عدد ١٣ - ٢٥

٣٤ - إنجيل متى الإصحاح ٨ عدد ١٩، ٢٠ والإصحاح ١٦ عدد ٢٥ - ٢٨

تلامذة ليتركوا الدنيا وغناهم وينذروا عيشة الفقر والفاقة

تلامذة له ليتركوا غناهم وينذروا عيشة الفقر والفاقة

٣٥) وجاء فى كتاب البوذية القانونية المقدسة أن الجموع طلبوا من بوذا علامة «أى آية» ليؤمنوا به

٣٥) وجاء فى كتب النصارى المقدسة أن الجموع طلبوا من يسوع آية كى يؤمنوا به

٢٦) لما اقترب انتهاء أيام بوذا على الأرض وعلم الحوادث المقبلة التى ستقع قال لتلميذه : أناندا ماياتى يا أناندا متى أنا ذهبت لا تظن أنه لم يعد لبوذا وجود كلا، فالكلام الذى قلته والفرائض التى افترضتها تكون خلفا عنى وهى لك كذاتى أنا

٣٦) لما اقترب انتهاء أيام يسوع على الأرض أخبر عن الحوادث التى ستقع من بعده وقال لتلاميذه: اذهبوا وتلمذوا جميع الأمم . وعلموهم أن يحفظوا هم جميع ما أوصيتكم به وها أنا معكم كل الأيام إلى انقضاء الدهر

٣٧) وجاء فى التعاليم البوذية أن إنفاق الإنسان لماله من أعظم الصعوبات ومن ينفق غناه هو أشبه بمن يهب روحه، لأن النفس تبخل

٣٧) وإذا واحد تقدم وقال له أيها المعلم الصالح أى صلاح أعمل ليكون الحياة الإبدية .قال له يسوع: إن أردت أن تكون كاملا فاذهب

---

٣٥) كتاب علم الأديان ص٢٧ تأليف مولر

٣٦ ـ كتاب المونا شيزم الشرقية ص ٢٣٠ تأليف هاردى .

٣٧) مولر فى كتاب علوم الدين ص ٢٤٤

٣٥) إنجيل متى الإصحاح ١٢ عدد ١٢

٣١) إنجيل متى الإصحاح ٢٤ وإنجيل مرقس الإصحاح ٨ عدد ٣١

٣٧) إنجيل متى الإصحاح ٦ عدد ١٩ ، ٢٠

بالمال وتتمسك به ، وبوذا قد وهب وتذر حياته شفقة وحنوا لخير الناس ، فلماذا تتمسك بغناء الدنيا الزهيد ولما تخلص بوذا من حب المشتهيات الدنيوية وملذاتها نال المعرفة الإلهية وصار الرأس فليعمل الرجل الحكيم الهاجر لملذات الدنيا الخير مع كل أحد حتى تقديم نفسه فداء عن الغير ، عندها يصل إلى المعرفة الحقيقية

٣٨) وكان قصد بوذا تشييد مملكة دينية أي مملكة سماوية

٣٩) وقال بوذا الآن أحببت إدارة دولاب الشريعة العظيم ومن أجل هذا فإنى ذاهب إلى مدينة بينارس لأهب نورا للتائهين فى الظلام وأفتح باب الحياة للإنسانية

٣٨) بيل تاريخ البوذية ص ١٠

٣٩) « « « ص ١٤٤

وبع أملاكك وأعط الفقراء فيكون لك كنز فى السماء وتعال اتبعنى لاتكنزوا لكم كنوزا على الأرض حيث يفسد السوس والصدأ وحيث ينقب السارقون ويسرقون بل اكنزوا لكم كنوزا فى السماء حيث لا يفسد سوس ولا صدأ وحيث لا ينقب سارقون ولا يسرقون

٣٨) ومن ذلك الزمان ابتدأ يسوع يكرز ويقول توبوا لأنه اقترب ملكوت السموات .

٣٩) من بعد تجربة الشيطان ليسوع ابتدأ يسوع بتأسيس مملكة دينية ومن أجل هذا الغرض ذهب إلى مدينة كفر ناحوم ومن ذلك الزمان ابتدأ يسوع يكرز ويقول

٣٨) إنجيل متى الإصحاح ٤ عدد ٧

٣٩) إنجيل متى الإصحاح ٤ عدد ١٢ ، ١٧

٤٠) وقال بوذا للتلميذ الحبيب أنا ندا إن كلامى لاريب فيه فلا يزول قطعيا ولو وقعت السموات على الأرض وابتلع العالم وجفت البحار واندك جبل سومر وصار قطعا

٤١) قال بوذا لا يوجد شيء أعظم فعلا فى الإنسان من الاشتهاء والهواء الشهوانى ولحسن الحظ والسعادة لا يوجد سوى اشتهاء شهوانى واحد ولو كان يوجد اشتهاء آخر لما كان على وجه الأرض رجل يتبع الحق فاحترسوا من تحقيق بصركم فى النساء وإن كنتم مجتمعين معهن فاجعلوا اجتماعكم كأنكم غير

توبوا لأنه قد اقترب ملكوت الله ، الشعب الجالس فى ظلمة أبصر نورا عظيما ، والجالسون فى كورة الموت وظلاله أشرق عليهم نور .

٤٠) الناموس أعطى لموسى أما النعمة والحق فبيسوع المسيح صار الحق أقول لكم السماء والأرض تزول ولكن كلامى لا يزول

٤١) قال يسوع : قد سمعتم أنه قيل للقدماء لاتزن وأما أنا فأقول لكم إن كل من ينظر إلى امرأة ليشتهيها فقد زنى بها قلبه .

---

٤٠) بيل تاريخ البوذية ص ١١

٤١) كتاب تقدم الأفكار الدينية المجلد الأول ص ٢٢٨

٤٠) إنجيل يوحنا الإصحاح الأول عدد ١٧ وإنجيل لوقا

٤١) إنجيل متى الإصحاح الخامس عدد ٢٧ ، ٢٨

حاضرين معهم وإذا كلمتوهن فاحترسوا على قلوبكم

٤٢) وقال بوذا الرجل العاقل الحكيم لايتزوج قط ويرى الحياة الزوجية كأتون نار متأججة ومن لم يقدر على العيشة الرهبانية يجب عليه الابتعاد عن الزنى

٤٣) ومن جملة التعاليم البوذية قولهم إذا أصاب الإنسان حزن وآلام وبؤس وقنوط فإن ذلك يدل على أنه ارتكب آثاما، وهذه الآلام جزاء عليها ، وإذا لم يكن ارتكب شيئاً من الآثام فى هذا الدور الحاضر من حياته لابد أن يكون قد ارتكبه فى أحد الأدوار السابقة من ظهوره « أى فى أحد أدوار تقمصه »

٤٢) فحسن للرجل أن لا يمس امرأة ولكن إن لم يضبطوا أنفسهم فليتزوجوا لأن التزويج أصلح من التحرق

٤٣ » وفيما هو مجتاز رأى إنسانا أعمى منذ ولادته فسأله تلاميذه قائلين: يا معلم من أخطأ هذا أم أبواه حتى ولد أعمى

---

٤٢) ريس دانس فى كتابه المدعو البوذية ص ١٠٣

٤٣) ريس دانس فى كتابه المدعو البوذية ص ١٠٣

٤٢ » رسالة كورنثوس الأولى الإصحاح ٧ عدد ١ — ٩

٤٣) إنجيل يوحنا الإصحاح التاسع عدد ١ ، ٢

٤٤ » كان بوذا يعلم أفكار الناس عند ما يدير تصوراته نحوهم ويقدر على معرفة أفكار المخلوقات كلها

٤٤) كان يسوع يعلم افكار الناس عندما يدير تصوراته نحوهم وأنه قادر على معرفة أفكار المخلوقات كلها

٤٥ » وجاء فى كتاب الصوماديفا حكاية منسوبة لأحد القديسين البوذيين أنه قلع عينه ورماها لأنها شككته

٤٥ » قال يسوع فإن كانت عينك اليمين تعثرك فاقلعها وألقها عنك

٤٦ » لما عزم بوذا على التنسك كان راكبا جوادا يدعى كنتاكو ففرشت الملائكة طريقه بالزهر

٤٦ » لما كان يسوع داخلا اورشليم راكبا على حمار فرشت له الجموع الطريق بأغصان النخيل

---

٤٤ » هردى فى كتابه المدعو خرافات البوذيين ص١٨

٤٤) إنجيل يوحنا الإصحاح الرابع كلامه مع المرأة السامرية

٤٥ » كتاب مولر المسمى العلوم الدينية ص ٥٤٢

٤٥) إنجيل متى الإصحاح ٥ عدد ٢٩

٤٦ » هردى فى كتابه المسمى خرافات البوذيين ص ١٣٤

٤٦) إنجيل متى الإصحاح ٢١ عدد ١ ، ٩

٣ — وقد كانت كثرة هذه الأساطير، والأخبار التى يعسر على العقل أن يصدقها من غير بينات قائمة، وسلطان سببا فى أن وجد من المؤرخين من يزعم أن بوذا شخصية خرافية لا وجود لها، وأن البوذية ليست إلا مجموعة تعاليم انتحلت لها هذه الشخصية انتحالا. ولكن الحق أن بوذا قد وجد حقا وأن قبره قد قامت بجواره مسلتان، وأنه قد وصل إلى تعاليم وحقائق عن طريق التجربة والمقابلات الدقيقة بين الأمور والآراء المختلفة، وأنه كان على جانب عظيم من طيبة النفس، وحسن الخلق، ولطف المعشر، وكانت نفسه معتركا شديدا لنضال بين نوازع الجسم وما أخذ به نفسه بالرياضة، حتى انتهى بالانتصار على لذاته انتصارا مؤزرا.

ولكن مع الاعتقاد بوجود بوذا نقول إن كل ما أحيط به من أساطير باطل لا يقوى على النظر الصحيح والفكر الثاقب.

٤ — آراء بوذا والإلهيات: ـ ثبت أن بوذا كان عاكفا على دراسة واحدة هى التى جعلها عماد نظره، وقوام بحثه، والأساس الذى بنى عليه ديانته، أو بعبارة أدق مذهبه الخلقى، وتلك الدراسة كان موضوعها تخفيف ويلات الإنسانية، والقضاء على الشقاء فى هذه الحياة، واجتثاثه من أصله.
ولكن قوما من الباحثين ادعوا أنه أنكر حقيقتين، وهما «١» الألوهية «٢» النفس الإنسانية.

أما الأول فقد زعم بعض المؤرخين أنه روى عن بوذا أنه أنكر وجود إله قد أنشأ الأكوان. ويقولون إنه كان يقول: وما الإله؟ أهو العناصر نفسها؟ لئن كان ذلك، ما كان فى الأمر جديد غير وضع اسم على شىء، ويقول أنصار ذلك: إنه كان يعتقد أن فى العالم فقط روحا عاما متغلغلا فى كل شىء.

وإن الذى نعتقده أن بوذا لم يتعرض للبحث فى الالوهية بسلب أو إيجاب، وأن مذهبه إصلاحى اجتماعى خلقى أكثر منه دينى، ولذا لم يتعرض للاهوت ، ولعل العبارة التى وردت فى بعض الروايات كانت فى أثناء حيرته وهو منهمك فى الأدغال والأحراش ، هائم على وجهه طالبا للحقيقة ، بل إن العبارة يبين من لحنها واستفهامها أنها عبارة شاك متحير لا عبارة منكر جاحد. وإن أولئك الذين يعتمدون على تفكيرهم الخاص فى الوصول إلى الحقيقة يعتريهم مثل ذلك الاضطراب .

والمذهب لا يؤخذ من قول المفكر عند حيرته ولا من عبارة تلقف عنه ، بل المذهب ما يستقر عليه الشخص ، ويتجه إليه ، ويدعو الناس لاعتناقه ، ولم يدع أحد أن ذلك كان جزءا من مذهبه وآرائه ، دعا الناس إليه ، بل إن منتحلى نحلته كانوا جميعاً يؤمنون بقوة مسيطرة على العالم ،ولم يمنعهم ذلك من أن يجمعوا بين عقيدتهم ومذهبه ، وإذا كان من متبعيه من نحله أوصاف الإله ، فذلك دليل يظن معه أنه ليس من دعاته انكار الإله .

٥ — وأما انكار النفس ، فقد ورد أيضاً منحولا له ، ولكن ذكرته أكثر المصادر ، فهو أقوى سنداً من الإنكار الأول ، وأصدق نسبة ولكنه لا يتلاءم مع جملة أفكارهم ، وخلاصة ما ينسب إليهم ، ومما ينسب إليهم بلا ريب فى نسبته (التناسخ) والتناسخ لا يفهم إلا إذا كان للنفس كون قائم مستقل عن الجسم، وليست خاصة له ، ولا ظاهرة من ظواهره. وبيان ذلك أن التناسخ يقتضى أن يكون شىء منتقلا من جسم إلى جسم حتى يصعد فى مدارج الرقى أو يكفر عن الخطايا بالنزول فى جسم أدنى ، ونحو ذلك ، ولا جائز أن يكون ذلك الشىء جسما ، لأنه لا معنى لانتقال جسم حى فى جسم آخر حى ، إلا إذا كان فى أحدهما خاصة ليست فى الأول ،

وهى غير الحياة ، لأن كليهما فيه الحياة ، فلا بد أن يكون ذلك معنى نفسياً .

ولهذا رأى بعضهم لكى تتلاءم فكرة التناسخ مع فكرة إنكار النفس ، أن يقول: إن النفس غير موجوده، ولكن هناك رغبة هى التى تنتقل من جسم إلى جسم ، ومن حى إلى حى تبعاً لقانون التناسخ ، وهذا فرض لا يمنع الاعتراض الوارد ، والتناقض الواقع ، لأن هذه الرغبة أهى خاصة للجسم ، أم هى شىء غير الجسم ؟ فإن كانت شيئاً غير الجسم ، فهى النفس سواء أسموها رغبة أم نفساً ، وبذلك يعود هذا على أصلهم بالنقض ، ويؤدى كلامهم الى نقيض ما يدعون ، ويهدمون بيد ما يبنونه باليد الأخرى .

وإن كانت الرغبة خاصة من خواص الجسم ، ولازمة من لوازمه فكيف تنتقل إلى جسم آخر وهى خاصة من خواص غيره ؟ ذلك يقتضى أن ينتقل الجسم مع رغبته الخاصة به ، لأنه من غير المعقول أن يوجد اللازم من غير ملزومه والخاصة من غير المختص بها .

لهذا كله نقول: إن إنكار بعضهم للنفس يتنافى مع اعتقادهم التناسخ الثابتة نسبته لهم والتوفيق بينهما يؤدى إلى أمور لا يقبلها العقل ، أو يؤدى إلى هدم أحد الأمرين اعتقاد التناسخ أو إنكار النفس .

٦ — المذهب البوذى العملى : — الجزء الخصب فى البوذية هو مذهبها فى الأخلاق واصلاح المجتمع، وتخفيف ما فيه من شقاء ،فلقد لاحظ بوذا أن هذه الحياة تحوطها الأكدار والآلام من كل جانب ، بل إنها آلام تتبعها أحزان تشقق المرائر . وتجعل كل إنسان فى نغص دائم وبلبال

مستمر ، ولاحظ أن منشأ تلك الآلام التى طم سيلها فى هذه الحياة اللذات والأمانى التى تبعثها الرغبات فى التى استحوذت عليها الملاذ والشهوات .

فاللذات فى عقباها آلام، وإن تطلعت النفس إليها و تمنتها كان فى الحرمان منها آلام أيضاً : فلولا انبعاث اللذات ، ما كانت الآلام ولولا استهواء الأمانى التى تبعثها اللذات ما كانت آلام الحرمان، لذلك كان لابد لمحو الآلام القضاء على أصلها ، والنبعة التى نبعت فيها ، وذلك يكون بالقضاء على اللذات وآمالها وأمانيها ، ولا يتم هذا إلا إذا راض الشخص إرادته على هجر اللذات جملة ، ومجاهدتها ليكون للإنسان القدرة التامة ، فلا يناله الحرمان من لذة بمضض الألم .

لهذا كله كان العماد الذى أقام عليه بوذا مذهبه فى السلوك القويم للإنسان أن يجاهد الشخص الشهوات، ويروض إرادته والعود أخضر على ترك اللذات ، والصبر على الحرمان منها ، فلا يكون ألم .

٧ — ولكى يصل الشخص فى يسر ومن غير عنف إلى تلك الغاية السامية وهى رياضة الإرادة لكى يتحمل الحرمان من غير ألم يصحبه يجب عليه سلوك الجادة المستقيمة والممر الوسط ، وذلك بأن يكون فى حياته كلها مقيدا نفسه بثمانية أمور فى كل شأن من شئون الحياة ، وتلك الثمانية هى :

أ) الاتجاه الصحيح المستقيم بأن يتجه إلى أى أمر يريده اتجاها صحيحا مستقيما خاليا من كل سلطان للشهوة واللذة وما تبعثه من أمانى وأحلام فاسدة ،فيجتهد عند الاتجاه إلى أى أمر فى أن يخلص إرادته من شائبة اللذات

أو الشهوات ، وما يتصل بها من آمال تبعتها وأحلام تثيرها ، وفى الجملة ينقى نفسه من كل ما يتصل باللذة عند الاتجاه .

ب) الإشراق الصحيح المستقيم ، وذلك أن الإنسان عند الاتجاه إلى أمر من الأمور اتجاها مستقيما خاليا من شوائب اللذات ، تعتريه نورانية تجعله يستطيع الوصول إلى حقائق الأشياء من غير أن يرنق نظره أى درن من أدران اللذة ، ولا يرين على عقله ما تثيره من أهواء .

ج) التفكير الصحيح المستقيم . وذلك أن العقل إن خلا من شوائب اللذة ، ونال الإشراق الصحيح كان تفكيره مستقيما ، وكانت العمليات العقلية التى يقوم بها فى التفكير فى هذا الأمر مستقيمة لاتؤثر فيها نزعة هوى ، ولا جموح شهوة . ولا اضطراب الأمانى والأحلام فى قلبه .

د) ولا شك أن هذه المستقيمات الثلاثة السابقة: الاتجـــاه المستقيم والإشراق المستقيم ، والتفكير المستقيم يترتب عليها أمر رابع مستقيم ، وهو اطمئنان العقل والقلب إلى فكرة خاصة من بين ما يعرض لها من الأفكار والآراء والأنظار . وذلك هو الإيمان المستقيم ، أو الاعتقاد المستقيم الذى يصحبه ارتياح واطمئنان ، وبه يصير القلب فى روح وريحان من النعيم المعنوى .

هـ) والذى يتمم الأمور الأربعة السابقة لفظ مستقيم ، وذلك بأن يكون نطق الإنسان بما انتهى إليه من فكرة مطابقا تمام المطابقة لاعتقاده ، ولما ارتاح اليه ، وعمر قلبه بالسرور به .

و) السلوك المستقيم : وذلك هو الأمر السادس الذى لابد منه لسلوك الممر الوسط ، والسلوك المستقيم ما يكون مطابقا لكل ما قام بالقلب من

أعتقاد فيكون العمل على وفق العلم ، فلا مجافاة بينهما ، ولا مناقضة ، بل يكون كل منهما مؤكدا للآخر أو متمما له .

ز) الحياة الصحيحة ، بأن يكون قوامها هجر اللذات هجرا تاما وأن يكون كل ما يجرى فيها متطابقا مع السلوك القويم ، والعلم الصحيح ولا يشذ فيها شيء عن مقتضى هذا السلوك ، وأحكامه .

ح) الجهد الصحيح . وذلك بأن تكون كل الجهود التى يبذلها الإنسان فى سبيل أن تكون الحياة مستقيمة سائرة على مقتضى السلوك ، والعلم والحق ، ومنع كل ماله صلة باللذات ، أو من شأنه أن يثير دواعيها ، ويحفز إليها .

٨ — هذه هى الأمور التى لو تمت على وجه مستقيم سار الشخص على الجادة ، وسلك الممر الوسط الذى يوصل إلى حياة سعيدة خالية من الآلام خلوها من دواعيها ، وهى الشهوات واللذات .

وإذا كان فى هذا الكلام شيء من الخير ، فهو فى مقاربته فى بعض نواحيه إلى ما يرمى إليه الحديث الشريف : « لا يؤمن أحدكم ، حتى يحب الشيء لا يحبه إلا لله » بان يحب الشيء خاليا فى محبته له من كل شوائب الأغراض والأهواء قاصدا بمحبته وجه الله سبحانه وتعالى ، وذلك فى جملته يقرب منه فى الاتجاه الصحيح ، وإن كان معنى الحديث أسمى ، وأدق ، وأحكم .

٩ — وإذا كان ما تقدم هو لب الفضائل البوذية ، وما تدعو إليه من مجاهدة اللذات وبواعثها ورياضة الإرادة على تركها جملة ، فالرذائل عند البوذيين منشؤها هو اللذات ، والانهماك فيها ، وما تدعو إليه . ونقيض

ما تقدم من الأمور المستقيمة التى يتكون منها الممر الوسط هو أس الرذائل وعماد الآلام ولذلك يرجع الرذائل إلى أصول ثلاثة .

أ) الاستسلام الملاذ فإنه يجعل الحياه كلها فى ألم مستمر ، وفوق ذلك يعكس نظر الأشياء فى العقل والقلب ، فكل نظر يكون مغشيا بغشاوة من الشهوات والرغبات والأحلام الفاسدة ، والأمانى الكاذبة التى تبعث إليها اللذات الملحة .

ب) سوء النية فى طلب الأشياء ،وذلك من استمكان اللذات فى النفس فإن الغرض الفاسد يتحكم فى طلب الإنسان للأشياء ، فلا يصير واضح المقصد بين الغاية لما لهمن مآرب يطلبها ويسترها ، وغايات تدفعه ولا ينالها، ويدفعه إلى الكتمان رغبة نيلها ، وتوقع الاعتراك بينه وبين غيره فيها ، لذلك يسود سوء النيـــة ، فهو إذن وليد استمكان اللذة فى القلب ، واستيلائها عليه ، وهو أيضاً أصل لكثير من الرذائل كالغش والكذب والنميمة وغير ذلك .

ج) الغباء وعدم إدراك الأمور على الوجه الصحيح وفى أكثر الأحيان يكون ذلك منشؤه من رين الشهوات على النفس . وسدها سبيل الإدراك الصحيح فيصبح العقل لا يرى إلا ما تعكسه عليه ، ويمتنع على النفس الإشراق الذى ينشأ من التجرد من الملاذ ، والإلهام الذى يكون من هجر الشهوات .

١٠ ـــ وقد ذكر فى كتب البوذية عشر رذائل ، جاء النهى عنها فى تلك الكتب على صورة وصايا ، وهى لو أخذ الشخص نفسه بها ، ورعاها حق رعايتها ، كان فى الأخذ بها استيلاء تام على الإرادة ، وتلك الوصايات العشر هى :

أ ، لاتقتل أحداً ، ولا تقض على حياة حى .

ب ، لا تأخذ مالا لايقدم إليك ، فلا تسرق ولا تغتصب .

ج ، لا تكذب ، ولا تقل قولا غير صحيح .

د ، لا تشرب خمراً ، ولا تتناول مسكرا ما .

هـ ، لاتزن ، ولا تأت أى أمر يتصل بالحياة التناسلية إذا كان محرما .

و ، لا تأكل طعاما نضج فى غير أوانه .

ز ، لاتتخذ طيبا ، ولا تكلل رأسك بالزهر .

ح ، لا ترقص ، ولا تحضر مرقصا ولا حفل غناء .

ط، لاتقتن فراشا وثيرا ، فلا تقتن أرائك فخمة ، ولا وسائد ولا حشايا وثيرة .

ى ، لا تأخذ ذهباً ولا فضة .

١١ ــ هذه هى الوصايا العشر التى يأخذ بها البوذى ليروض إرادته على ترك الملاذ ، والعكوف على المجاهدة وتهذيب الذات ، وتخفيف ويلات الحياة، ومنها ترى أنهم يحثون على عدم أخذ الذهب والفضة . كأنهما الأمر الذى تضل عنده الأفهام ، وتستيقظ حوله المطامع وكأنهما مدخر اللذة، لاستعانة الناس بهما فى اجتراع اللذات ، واجترار الشهوات ، ولهذا النهى عن اقتناء الذهب والفضة قال العلماء : إن البوذية تحث على عدم الملك، وتطالب البوذى أن لا يملك شيئاً ولا يقتنى شيئاً ، فهو يطلب طعامه يوما بعد يوم ، ولا يدخر من يومه إلى غده .

ولقد كان هذا سبباً فى أن ينقسم البوذيون إلى قسمين :

« أحدهما » البوذيون الدينيون الذين أخذوا أنفسهم بالتعاليم السابقة لايحيدون عنها قيد أنملة ، وقيدوا أنفسهم بأنواع من الأطعمة لايعدونها ،

ويحرمون كل شيء غيرها ، ولا يلبسون إلا خشن الثياب ولا يرضون إلا جشب العيش ، لما راضوا أنفسهم عليه ، من ترك كل لذات الحياة وراءهم ظهريا ، ليستولوا عليها ويمتنعوا عن آلامها .

« ثانيهما » البوذيون المدنيون ، وأولئك هم البوذيون الذين لم يطيقوا تطبيق المنهاج الشاق الذى أخذ به الدينيون منهم ، فاختاروا لأنفسهم طريقا وسطا ليس فيه إفراط غير البوذيين فى اللذات ، ولا شدة البوذيين الدينيين بل هو وسط بين النجدين . أخذوا الأخلاق البوذية من تواضع وإيثار وحب للفداء وصدق وأمانة وحلم وعلم وصفاء ، ونالوا بعض الملاذ التى لا تعقب ألما ، ولم يندفعوا فيها حتى يصابوا بألم عند الحرمان (١) وفى الوقت الذى سلكوا فيه هذا المسلك آووا اخوانهم الدينيين ، وأعانوهم على طريقتهم ، وأمدوهم بالأسباب التى تعاونهم على الإيغال فى مذهبهم ، معتقدين أن من آمن ببوذا ، وتحلى بما يدعو اليه من أخلاق وآوى رجال دينه ، وأعانهم ثم تناول بعد لك بعض متع هذه الحياة ، فإنه يصل إلى طريق الخلاص ، ويرقى إلى مرتقى السعادة والنجاة .

١١) ما بين البرهمة والبوذية : تبين مما مضى أن البوذية لم تعن بالبحث عما وراء الطبيعة ، فلم تتجه إلى الدراسات التى تتصل بالألوهية ، وحدود سلطانها بل كل عنايتها كان لإصلاح الإنسانية بإنقاذها من الآلام ، وابعادها عن ويلاتها ، برياضة الإنسان على هجر اللذات ، وتربية الإرادة على اهمالها وعدم العناية بها على ماتقدم ، وهذا كما ترى فارق بين البوذية والبرهمية ، فإن البرهمية كانت فيها العناية الكبرى بالجانب الإلهى . والتقرب

---

(١) ولقد اكتفى المدنيون بأن يطيعوا من النواهى العشرة المتقدمة الخمسة الأولى فقط وهى النواهى عن القتل ، والسكر ، والسرقة ، والكذب ، أما خمسة النواهى الاخرى فهى خاصة بالمتدينين .

للمعبود ، والفناء فيه ، وكل مافيها من نسك فهو لهـذه الغاية فإذا اتحـدت البوذية والبرهمية فى النسـك والزهد فى الملاذ وهجرها ، فالغاية مختلفة ، فغاية البرهمى الزلفى والتقرب للمعبود وإعطـاؤه مايستحق من عبادة ، أما البوذى فغايته من النسك رياضة الارادة على الحرمان ، وتعويدهاالسيطرة على الرغبة فى الملاذ ، لكيلا تشق بطلبها ويحز فيها الحرمان .

ولقد كان أبلغ ما أحدثته البوذية من أثر فى المجتمع الإنسانى ، إلغاؤها نظام الطبقات واعتبارها بنى الإنسان سواسية كأسنان المشط يتفاضلون فى المواهب ، ويتساوون فى الحقوق ، لافرق بين شخص وشخص بنسبه أو طبقته ; ولكـن الفرق بينهما بالموهبة والقدرة والعمـل . محا بوذا إذن الفرق بين الطبقات وتلاقى الناس فى مذهبه عنـد الوحدة الإنسانية ، من غير اعتبار للاختلاف العنصرى ولا فضل لأحد إلا بالمعرفة وسيطرة الإرادة الإنسانية سيطرة تامة ، لاتقوى اللذات على الغلب عليها .

١٣ ـ كتب البوذية : كتب البوذيين ليست منزلة ، ولا يدعـون ذلك هم ، بل هم لاينسبون مافيها إلى جانب إلهى ، بل هى عبارات منسوبة إلى بوذا أو حكاية لأفعاله أو نقل لما أقره من أعمال أتباعه ونصوص تلك الكتب مختلفـة بسبب انقسام البـوذيين فى نحلهم · فبوذيو الشمال لديهم نصوص ليست عند أهل الجنوب ، وأ كثرها قد اشتمل على أوهام كثيرة ، تتعلق بوذا ، أو حلول الأله فيه ، ونصوص بوذى الجنـوب هى الأصح نسبا ; والأصدق قولا والأبعد عن الأوهام ، وهى التى نعتمد على بيانها .

تنقسم تلك الكتب إلى ثلاثة أنواع ، أولها ، يشتمل على مجموعة قوانين البوذية ومسالـكها ، وقد جمعت تلك المجموعة سنة ٣٥٠ ق م وهى تنقسم إلى ثلاثة أقسام . قسم يحوى العقوبة المفروضة على مايقع من البوذى من ذنوب ومخالفات ، ويحوى نحو سبع وعشرين ومائة فقرة . وقسم يحوى

التعـاليم التى يجب اتباعها لتربيـة النفس على مايدعو اليه البوذيون ، وفيه قرارات المجالس البوذية التى انعقدت فيما بين سنتى ٣٨٠ و ٣٢٠ ق م وفيه أيضا بيان بمـا يتبع لقبول طالبى البوذية واجتماعات البوذية ، وتفاصيل حياة البوذى . وقسم فيه خلاصة القسمين المـاضيين ، ليـكون فى متناول الجماهير ، وفيه خلاصة للسلوك القويم الذى يدعو اليه البوذيون .

« ثانيها » مجموعة الخطب التى ألقـاها بوذا ، ووصاياه ، وهى مجموعات مختلفة تضم كل مجموعة طائفة من المسائل المتقاربة فى الفـكر ، وفى هـذه الخطب وصايا بوذا ، ودعواته التى وجهها إلى الناس وكـثير من الأحكام التى تتصل بالبوذية مما يجب على البوذى سلوكه ، وكل هذه الخطب والوصايا تنسب لبوذا .

« ثالثها » الـكتاب الذى يحوى بيان أصل المذهب ، والفـكرة التى نبع منها ، وبعبارة أدق فيه الفلسفة التى قامت عليها الديانة البوذية ، والأصل الذى استنبطت منه تعاليمها ، وفيه بحوث تدور حول الخير والشر ، واللذة والألم وفى الجملة نرى فى كـتب البوذية كلاما خصبا قيما فيه بيان للأخلاق والسلوك القويم ، وقد ترجمت إلى اللغات الحيـة وكانت مادة لدراسات فلسفية خلقية .

الكونفوشيوسية

١ ـ مكثت العقلية الصينية والفكر الصيني القديم كنزا مدفونا في أحقاب التاريخ لايعرف الغربيون ، ومن داناهم شيئا منه ، حتى خيل إليهم أن تلك الأمة القديمة ليست لها فلسفة ولا لون خاص من ألوان الفكر الإنساني ، ولا منهج خاص من مناهج السلوك لبلوغ الغاية السامية في طريق الخير ، وما كان ذلك الخفاء إلا لصعوبة الوصول إلى تعرف ماضي تلك الأمة ، فاللغة الصينية عسيرة ليس من السهل معرفتها ، والتراجم عنها ليست كاملة الصحة ، ولا تامة التصوير لمعاني ما اشتملت عليه بسبب تلك الصعوبة، ولكن تلك الغشاوة لم تلبث أن أزيلت ، وكشفت الإرادة الإنسانية ودأب العلماء ، وحرصهم على طلب المعرفة ولو بالصين ـ عن الفلسفة الصينية والعقل الصيني ، والنفس الصينية ، ولقد استبان مما كشفوا عنه أن أخص ما امتازت به النفس الصينية ، أنها أقدر النفوس على تحويل النظريات الخلقية إلى أخلاق عملية ، ففلسفتها تقوم على السلوك القويم للإنسان ، وهي عملية في هذا المعنى أكثر منها نظرية ، فحكم الحكماء ووصاياهم ، ونظرياتهم الفلسفية هي أعمال الشعب في سلوكه ومناهجه .

وإذا كان العالم قد رأى الآراء الدينية على أكمل وجوهها في الساميين والتصوف على أكمل مناحيه في الهنود ، والفلسفة النظرية في الإغريق ، فالفلسفة العملية على أكمل وجوهها في الصين : الفلسفة عندهم تنحو نحو

الاخلاق وهي تبتدىء بنظريات للأخلاق الفاضلة . وأسس لقواعد الخير والشر ، ولا تلبث حتى تبسط وتسهل وتصير أخلاقا عامة للشعب ، فالجانب العملي له العناية الأولى لديهم ، ولهذا بلغت الاخلاق عند الصينيين درجة من السمو أدهشت العلماء عند ماتعرفوها ، وعلموها ، ولقد شده المبشرون عندما علموا ماعند الصينيين من حكم موروثة ، ووصايا ، وآراء خلقية سامية ، ولذا قرروا أن الصينيين لابد أن قد بعث فيهم رسل ، ولقد أخذوا لهذا يوازنون بين التوراة والكتب الصينية في الأخلاق والحكم والوصايا .

ومهما يكن أمر الدافع الذى يدفع هؤلاء المسيحيين إلى هذا الظن ، فليس عندنا نحن المسلمين من مانع يمنع من قبوله . بل إنا أقرب إلى اعتقاده ، لأن الله سبحانه وتعالى وهو الحكيم العليم ، الرءوف الرحيم ، لايترك أولئك الجماعات الكبيرة من البشر من غير هاد يهديهم ، ولا رسول مبين يدعوهم بدعاية الله سبحانه وتعالى ، وإن كنا لانعرف رسولا من هؤلاء الرسل ، ولا عصراً لرسول ، وليس جهلنا هذا نافياً للوقوع ولا دليلا على عدم الحصول ، لأن عدم المعرفة لايستلزم عدم الوقوع .

ولم يبين القرآن الكريم كل الرسل السابقين ، فقد قال الله تعالى : « ولقد أرسلنا رسلا من قبلك منهم من قصصنا عليك ومنهم من لم نقصص عليك » ، ولذلك نحن لا نستطيع أن نقف موقف السلب من دعوى المسيحيين أن رسلا بعثوا في الصين ، ولكن ليس لدينا خبر يقيني برسول معين بعث فيهم ، ودعوى ذلك لاتخلو من الحدس والتخمين . « وإن الظن لايغني من الحق شيئاً » .

٢) هذا . والذى نلاحظه على الفلسفة الصينية أنها اتصلت بالدين وامتزجت به امتزاجا تاما ، وفى الحق أن التأملات الفلسفية ، والتدين

منبعهما من النفس واحد ، ينبعثان من مكان فى الوجدان واحد ، غير أن أحدهما يعتمد على العقل المطلق والآخر يعتمد على النقل فى أغاب نواحيه ، وخير القضايا الفلسفية ما كان موافقا للدين الحق ، لأن الدين الحق لا يأتى بشيء يتنافى مع العقل القويم .

وقد تغالبت الفلسفة والدين عند اليونان الأقدمين لانحراف أحدهما وعدم استقامته ، وكذلك اصطدمت الفلسفة والدين فى القرون الوسطى فى أوربا لهذا الانحراف أيضاً ، ولضيق فى صدور القوانين على الدين ، وقد يحدث أن تنحرف الفلسفة ، ولا تتقيد بقواعد العقل ، فتصير أوهاماً وأحلاما وتخييلات لا نظرات صائبة وتأملات ، وعندئذ تنحرف عن سمتها فلا يدانيها الدين الحق ، بل يكون بينهما ما يكون بين النقيض والنقيض .

بيد أن الفلسفة فى الصين لم تتجاف عن الدين ، ولم تناعنه مع أنك ستعلم أن الدين كان قائما على الإشراك ، والفلسفة قائمة على الأخلاق القويمة ، ومع ذلك تلاقيا وسار التدين مع الفلسفة سيرا متزنا محكما ، وذلك لما بيناه من أن الفلسفة الصينية قامت على تنظيم السلوك الإنسانى ، وإصلاح الأخلاق العملية ، وهنا التقت بدينهم من ناحية ما يدعو إليه من حسن المعاملة بين الناس ، فاتخذوا الاخلاق الفاضلة مذهباً فى السلوك القويم ، ودينا تدعو إليه الآلهة فى زعمهم ، فكان للأخلاق دعامتان قويتان :

إحدهما قائمة على الفلسفة والعقل والمنطق .

وثانيتهما قامت على دينهم .

وبهذا تقاربت فلسفتهم ودينهم على إقامة بنيان قوى من الأخلاق ، وسلوك الناس ، وإن كان دينهم فى عقائده وأسسه ليس شيئاً مذكورا ، ولا يمت إلى الحق والمنطق بنسب ، ولا يتصل به بسبب .

ولقد كان المزج المحكم بين فلسفة خلقية قديمة ودين ليس له أصل قويم ومنطق مستقيم على أتم وضوح في الكونفوشيوسية وصاحبها كونفوشيوس.

٣ ـ حياة كونفوشيوس : الاسم المشهور به في الصين «كونغ فوتس» ومعنى فوتس الحكيم أو الأستاذ، وكونغ هو الاسم، فمعنى التركيب الأستاذ أو الحكيم كونغ : وقد حرف الغربيون التركيب إلى كونفوشيوس » ولد ذلك الحكيم عام ٥٥١ قبل الميلاد بإحدى قرى مقاطعة لو من مقاطعات الصين وكانت أسرته عظيمة تمت في نسبها إلى فرع ملكي، فكان يجرى في عروقه دم ملكي يشعره بالعزة ؛ ولقد كان أبوه قائداً عظيما وحاكما لإحدى المدن، ولم يعقب في شرخ شبابه ولا في كهولته، وقد وهب الله له ذلك الابن الحكيم على الكبر، وقد نيف على السبعين، ولكن الطفل لم يكد يبلغ الثالثة من عمره حتى فقد أباه، ولم يترك له من حطام الدنيا شيئاً، غير أنه عاش على سمعة أسرته، فعاش وإن كان مقدور الرزق، محدود المورد، وتعلم العلم الذى كان يتعلمه من هو في مثل مولده وأسرته، فتعلم آراء الأقدمين الدينية، وتفهمها وأخذ بها، وكان لها سلطان تام على نفسه.

ولننظر نظرة عاجلة إلى التهيئة التي حاطت بها العناية ذلك الشاب، دم نبيل يسرى في عروقه، وأسرة سامية ذات شهرة ومجد، وفقر شديد كان معه مقترا عليه في الرزق. وإن تلك العوامل مجتمعة من شأنها أن تكون في الشخص نزوعاً إلى معالى الأمور من غير استعلاء، وذلك إذا صادفها مواهب عالية، ونفس سامية. فإن شعور المرء بمجد أسرته، وكرم محتده، وشرف نجاره من شأنه أن يجعل في المرء اتجاهاً إلى معالى الأمور، وتجافيا عن سفسافها، وإن الحد من الرزق يخلق في نفس الشخص العطوف

الرفق بالضعفاء ، والتواضع ، ومحبة الناس . ومن ذلك المعنى الأثر الصحيح : « اللهم أحيني مسكيناً ، وأمتني مسكيناً ، واحشرني في زمرة المساكين » .

فذلك الحكيم الذى تهيأ له أن يكون من أسرة كريمة ، وينشأ فقيراً ، قد اجتمع لديه هذان الأمران ، وبامتزاجهما تعلو النفس عن الدنايا من غير كبرياء ، وتتواضع من غير ضعة ، تتسامى من غير ورم فى الأنف ، وتتطامن من غير استخذاء . فتكبر من غير استكبار ، وتتواضع للضعفاء من غير صغار .

تعلم ذلك الحكيم فى صغره ما مكنه من أن ينظر إلى الحياة نظرة المستقل ، وأن يدرس طبائع الناس وخير ما يطب به لأدوائهم ، وتكون فيه سلامتهم وإصلاحهم . ولقد تزوج فى مقتبل عمره ، فقد تزوج قبل أن يبلغ العشرين من حياته . ولكنه لم يجد فى زوجه رفيقة تصاحبه فى لأواء الحياة ، وشريكة له تشركه فى سرائه وضرائه ، ففارقها بعد سنين معدودة ، ولكن بعد أن أعقب منها صبيا وجارية صاراً له قرة عين .

وقد أحس كونفوشيوس بحنين منذ بلغ أشده ، واكتملت نفسه إلى إرشاد الناس إلى خير مناهج الحياة ، وأقوم السلوك ، ولذا كان أشد ما رغب فيه أن يتولى صناعة التدريس . ولكن لم يتوافر له ذلك فى أول قيامه بالأعمال العامة ، فقد عين فى بعض الأعمال الإدارية المتعلقة بالزراعة ، وقبل ذلك العمل على مضض وشوق إلى غيره ، وذلك لضيق ذات يده وحاجته إلى ما يقيم أوده وأود أسرته ، وقد اعتكف مع ذلك على أسرته يعلم آحادها ومن ينضم إليهم ، وصار منزله منتدى طلاب العلم ومقصده . ولقد عين بعد ذلك أستاذاً ، وعندئذ أخذ مذهبه يتكون وآراؤه تتجمع ، ويبديها لا فى

كتب يؤلفها ، ولكن فى شبيبة ينشئها فأخذ يبث تعاليمه فيها ، حتى كان له منهم صحب يشبهون حوارى النبيين فى التمسك بفكرته ، والصدور عن دعوته ، والإخلاص لنحلته ، وهو فى هذه الأثناء لاينى عن تكميل نفسه بكل أنواع المعرفة ، فهو يعلم ويتعلم . ولذلك أعمل الجهد فى الاتصال بفيلسوف كان فى شيخوخته وكونفوشيوس فى شبابه ذلك الفيلسوف هو لوتس (١) فالتقى به وتعرف إليه ، ودارسه آراءه فلم يتفق الفيليسوف الشيخ مع الشاب ، وسنبين فى الفصول الآتية أوجه الخلاف بين الحكيمين .

ولقد أخذ كونفوشيوس يطوف فى الآفاق دارساً مرشداً ، رائضاً لنفسه وحاثاً أصحابه على الأخلاق القويمة ، حتى لقد استطاع أن يقول عن نفسه التى أشرف على تهذيبها وتكميلها ، ماحكى عنه أنه قال فى كتاب المحاورات: « انصرفت إلى طلب العلم ، وأنا فى الخامسة عشرة من سنى ، وفى الثلاثين التزمت جادة الفضيلة ، وفى الأربعين لم يكن فى نفسى أى ريب فى حقائق الأشياء ، وعلمت القضاء والقدر وأنا فى الخمسين ، وأصغت أذنى إلى كل الحق عارفا فاهما له وأنا فى الستين ، ولم أتجاوز حدود السلوك القويم وأنا فى السبعين » .

٥ ـ أخذ كونفوشيوس يطوف البلاد داعياً مرشداً ، ومسترشدا ، وكان فى كثير من الأحيان يخص بإرشاده الحكام ، معتقداً أن صلاح الراعى

---

(١) هو صاحب النحلة الصينية التى تعرف فى الصين « بالطاوية » . ولد لوتس قبل كونفوشيوس بأكثر من خمسين سنة وقد تولى بعض الأعمال ولكنه اعتزل فى آخر حياته ، وعكف على حياة الزهد ، والتأمل الفلسفى ، وقد جمعت أحاديثه وآراؤه فى كتاب يسمى « كتاب الأخلاق » وبين فلسفته الخلقية وفلسفة كونفشوس خلاف قوى ، فالأول يدعو إلى القناعة والزهد والتسامح المطلق ، ومقابلة الحسنة بالسيئة ، والثانى يدعو الى طريق لا إفراط فيه ولا تفريط ومقابلة السيئة بسيئة مثلها ، وسيتبين ذلك كله فى أثناء بحثنا .

يستلزم صلاح الرعية ، وأن حسن قوامته على الناس يتبعه صلاحهم ، ولأنه يرى أن السياسة الحكيمة فى تهذيب الرعية . حتى تقوم المحبة بين الناس مقام القانون . ولقد كان يقول «السياسة هى الإصلاح، فإن جعلت صلاح نفسك أسوة حسنة لرعيتك ، فمن الذى يجترىء على الفساد ؟ » ، لهذا كان يخص ـ وهو يطوف مقاطعات الصين ـ الأمراء بإرشاده لأن فى صلاحهم صلاح العامة ، وعليهم يواسى .

وقد عاد بعد تطوافه إلى ولايته ، وقد كملت رجولته ، وأنضج الاختبار آراءه ، وصقل تفكيره ، فعين حاكما لإحدى مدنها ، فكانت هذه فرصة قد انتهزها ليروض الناس على تعاليمه عملا كما راض هو نفسه ، فأخذ أهل هذه المدينة بالسلوك القويم ، وكانت عبقريته فى أن راض الناس على ذلك رغبا لا رهبا ، وبالاختيار لا بالاجبار ، حتى صارت تلك المدينة الفاضلة نموذجا يحاكى ، ومثالا يحتذى ، ولم يستمر حكم ذلك الحكيم مقصورا على المدينة ، بل رفعه أمير المقاطعة إلى مرتبة نائب الحاكم للمقاطعة ؛ ثم ولاه وزارة العدل ، فكان شأنه فى هذا كشأنه الأول يروض مرءوسيه على الاخلاق ، ويعطيهم من نفسه أسوة حسنة ، فيقتدون به ، واستعان فى أعماله ببعض أصدقائه الذين أشربوا تعاليمه ، ومازجت نفوسهم نفسه ، وفى حكمه ساد السلام ، واطمأن الناس ، وأظلت الفضيلة الجميع ، وكان هذا مثلا صالحا لحكم الفلاسفة ، سبق أحلام أفلاطون وغيره من المثاليين .

٦ ـ ولكن تلك الحال لم تدم طويلا ، فإن رجالا نفسوا على الحكيم تلك المنزلة ، وضاقت صدورهم حرجا من عظيم ما طويت عليه من الحقد ، فزينوا لأمير المدينة أن يخالف إرشاد الفيلسوف ، وقدموا له غصنا من الشجرة التى أغرى إبليس آدم على الأكل منها ، قدموا له غصن اللذة الشهى ، وحسنوا له أن يفك نفسه من القيود ، ويقبل عليها ، ففعل وعصى ارشاد

كونفوشيوس فرأى هذا أن أمور الدولة لا تستقيم ، وأميرها غير مستقيم ، لأنه القائل : « إن أخلاق الرؤساء كالريح ، وأخلاق المرءوسين كالعشب ، وإلى أية جهة هبت الريح مال العشب » .

عندئذ هدد الحكيم الأمير بترك الأمر إن لم يستقم ، فلم يرعو هذا عن غيه ، واستمر سادرا فى شهوته ، فاعتزل الحكيم ، وعاد إلى التطواف فى الأقاليم الصينية ، لا يقيم فى بلد إلا على نية النزوح منه ، وكلما حل على أمير مقاطعة دعاه إلى السلوك الفاضل ، فلم يجب أحد منهم دعاءه ، وإن أكرم وفادته ، حتى برم بهم ، ولم يكن له عزاء إلا تكاثر تلاميذه الذين اعتنقوا آراءه حتى بلغوا ثلاثة آلاف أو يزيدون ، وكلهم قد أشرب روحه ، ومازجت آراؤه نفسه ، وخالطت منها المهجة والفؤاد .

وقد عاد بعد الرحلة الطويلة إلى مقاطعته « لو » فأكرم أميرها وفادته ، ولكنه لم يطعه كسائر الأمراء ، فعكف الحكيم على مدارسة أصدقائه . وكانت السن قد تقدمت ، فقد ذرف على السبعين وقد اطرح هموم الدنيا ، ولكن نزل به وهو فى تلك السن المتقدمة ماحز فى قلبه وقطع نياطه ، فقد مات اثنان ، كلاهما مهجة نفسه ، وقطعة منه ، أما أولها فوحيده ، فقد أمضت نفسه بموته ؛ وهو فى هذه السن ، وأما ثانيهما فهو تلميذه الأثير عنده المحبب لديه ، وقد كان قطعة من روحه ونفسه ، واسمه «هووى (١) » ، فأظلمت الدنيا فى وجهه ، ولكنه لم يقعد عن العمل ، بل أخذ يلخص الكتب

---

(١) كان هذا تلميذه الفذ ، حتى أنه روى أنه عند ما احتضر بكى عليه الحكيم بكاء مراً ، وقد كان يقول فيه فى أثناء دراسته معه : لقد حدثت « هووى » طول النهار فلم يناقشنى كأنه غبي ، فلما تولى ولاحظت سلوكه وجدته كافيا للتعبير عما دارسته .

القديمة ويرتبها ، وبذلك قد خلد لنفسه عملا آخر جليلا بهذا التلخيص وذاك الترتيب .

هذا موجز لحياة فيلسوف الصين العظيم ؛ وقد مات بعد أن ترك من تلاميذه الذين أخذوا على عاتقهم بث دعوته فى الأقاليم الصينية ثلاثة آلاف، وقد نبغ منهم اثنان وسبعون ، وكلهم تعاون فى نشر مذهبه الخلق فى البلاد ، حتى صار بعد ذلك مذهبا رسميا لتلك البلاد المترامية الأطراف ، واستمر كذلك من آخر القرن الثانى قبل الميلاد إلى القرن العشرين بعده .

٧ ـ عقيدة كونفوشيوس :

تخرج كونفوشيوس على التعاليم الدينية التى كانت سائدة عند الصينيين الأقدمين ، فقد لقنها صغيراً وتلقاها والعود أخضر بالقبول . ولذا أحيا التعاليم الدينية القديمة ، ودون أصولها ولم يتعرض فى دراسته الخاصة لمناقشتها ، ولم يكن له مذهب فيها يدعو إليه ، ويحث الناس على اعتناقه ، بل كل عنايته كانت تقوم على السلوك المستقيم والدعوة إليه ، ولم يكن مدعيا لرسالة، ولم يكن هو رسولا مبعوثاً ، بل كان حكيما فيلسوفا يبشر بمذهب فى الأخلاق ويستمسك أشد الاستمساك به ، وأما عقيدته فهى ما كان يعتقده الصينيون القدماء، ولا تزال آثارته فى عقيدة أكثر الصينيين المعاصرين . وأساس هذه العقيدة أنهم يعبدون ثلاثة أشياء : السماء والأرواح المسيطرة على ظواهر الأشياء (الملائكة) وأرواح الآباء .

٨ ـ أما السماء المعبودة فلا يقصدون بها تلك القبة الزرقاء ، بل يقصدون تلك الأفلاك ومداراتها والقوى المسيطرة التى تسيطر عليها وتسيرها فى

مداراتها • وباتصالها بالأرض، وبالأمطار والرياح وغير ذلك تنبت الأرض من كل زوج بهيج ' وكانت عبادتهم للسماء لأنهم يعتقدون أنها عالم حي متحرك حسب نظام دقيق محكم، وأن كل ما في العالم من قوى مسيرة إنما هو خاضع لسلطان السماء .

وظواهر ما تدل عليه عبارات كتبهم أنهم لا يفرضون قوة مغايرة للعالم هي المنشئة له والمدبرة لأموره والمسيرة له والمسيطرة على حركاته والواقية له من الفناء والانهيار ، ولأجل أن يستقيم لهم فرضهم بعض الاستقامة ـ وان كان الأساس غير مستقيم ـ يقولون إن العالم فيه جانب مادي وجانب روحي هو القوى ، ومن القوى منفردة أو بائتلاف عدة قوى تحدث ظواهر الأشياء ويتم التحول المستمر الذى يقدرونه قانوناً عاماً شاملا والسماء لها السيطرة العليا على القوى والمادة والأشياء جميعها. وعلى أية حال فليس عندهم منشىء ومنشأ ، بل المنشىء لديهم من ذات المنشأ ، كما كان يسود الفلسفة الأيونية التى كان قوامها العنصر الأول الذى تكونت منه الأشياء .

ومع ذلك هم يؤمنون بالقضاء والقدر ،فيقولون إن كل الحوادث مقدرة فى السماء معروفة ، وقد اختص بعبادة السماء وتقديم القرابين لها ملكهم الأكبر ، ولذا يقال عنه إنه ابن السماء ، وقد حالت العقيدة وصار كل ملك أو أمير لمقاطعة له حق عبادة السماء كالملك الأكبر .

ومن عقائدهم المتعلقة بذلك أن الملك واجب عليه بأمر السماء أن يحكم الرعية بالعدل فإن قسا وظلم سلطت عليه السماء من رعيته من يخلعه أو يقتله ثم مكنت لغيره من العادلين من يستولى على عرشه . ويحكى أن ملكا استولى على العرش بعد أن انتصر على الملك الذى قبله وقتله ، قال : « أعطى الإله

لكل إنسان ضميرا إذا اتبعه يحفظه ويقوده إلى الطريق السوى ؛ والإله دائماً يبارك الطيب ويعاقب الردىء . ولذلك أنزل المصائب على بيت هشيا « بيت الملك السابق » كى يضع حدا لآلامه » .

٩ — أما عبادتهم القوى المسيطرة على الأشياء ، الموكلة بها ، فلأنهم كانوا يعتقدون أن لكل شيء قوة تسيطر عليه وتسيره ، وهى كثيرة : فللشمس قوة تسيرها ، وكذلك القمر ، وللسحاب ، والمطر ، والجبال والأنهار ، وكل الكواكب ، والأشياء ، وهذه القوى جميعها يعبدها الصينيون ، وقوى الأرض لا يعبدها الملوك ، ولكن يعبدها غيرهم . أما القوى الخاصة بكواكب السماء ، وكل ما يكون فيها ، فهى من السماء لا يعبدها إلا الملوك .

ومن عقائد الصينيين أن أرواح الأموات تنفصل عنهم بعد موتهم ، وتبقى فى الدنيا مع أسرتهم . ولذلك يعبدون أرواح الآباء تقديسا لهم ، ووفاء لعهودهم ، وشكرا لهم على ما أسدوا من نعم لأبنائهم ، ويقدمون لهم القرابين .

وعبادات الصينيين غناء ورقص وموسيقى ، وكأنهم بهذه الأعمال يشركون آلهتهم معهم فى سرورهم ، وأفراحهم ، وأغانيهم وموسيقاهم .

١٠ — ولم يكن الصينيون القدماء يؤمنون بجنة ولا نار ، ولا عقاب ولا ثواب ، ولقد اخذ كونفوشيوس بكل هذه العقائد ولم يزد عليها ، فلم يؤمن باليوم الآخر ، ولم يفكر فى الحياة بعد الموت ، بل كان كل همه فى إصلاح الحياة الدنيا .

يروى أن أحد تلاميذه سأله عن مآل الأرواح بعد الممات ، فقال :

« لم نـــقدر على خدمة الأحياء فكيف نقدر على خدمة الأموات ولم نعلم الحياة فكيف نعلم الممات » .

وكان يقدم القرابين ، ويقوم بواجب العبادة التى يقوم بها كل صينى بل كان فى الناحية الدينيةساذجا يتشاءم من هزيم الرعد ، ويرتجف،وترتعد فرائصه عندما يسمعه ، ويقرأ التعاويذ لطرد الأرواح الشريرة من بيته . وفى الجملة كانت عقيدته ساذجة . وعقله فى هذه الناحية كان عشا للخرافات والأوهام ، وفيه موضع لأساطير الأولين التى اكتتبها ، وحفظها ،ولكن عبقريته وقوة إرادته باديتان فى آرائه فى السلوك الإنسانى،والخلق القويم، ورياضة النفس عليه .

١١ — آراؤه فى الأخلاق : يجدر بنا قبل أن نتكلم على مذهب كونفوشيوس فى الأخلاق أن نبين الظاهرة العامة فى أخلاق الصينيين عامة والأخلاق التى سادت عصره ، والآراء الخلقية التى كانت سائدة قبيل زمانه ؛ لكى نكون على بينة من مدى أقواله ، وما دفع إليها ، وما بعثه على قولها ، وخصوصا أنه ما ادعى أنه أتى بجديد فى السلوك القديم ،ولكنه أحيا المقبور من آراء سابقيه ، وأخذوا أنفسهم به من أخلاق .

اعتقد الصينيون منذ أقدم عصورهم أن الأحداث الكونية تتبع الأخلاق التى تسود الناس وملوكهم ، فكلما كان الاعتدال والانسجام والفضائل يسودان المعاملة بين الناس ، ويربطان العلاقات بينهم برباط من المودة والرحمة ، فالكون سائر فى فلكه من غير أى اضطراب ، ولكن إذا حاد الإنسان عن سمت الحق ، والسلوك القويم إلى الفضيلة ، اضطرب بعض ما فى الكون لمخالفة القانون الأخلاقى ؛ وما الزلازل وخسف الأرض وكسوف الشمس ، وخسوف القمر إلا أمارات لفساد خلق، أحدث ذلك

الاضطراب الكونى ، وإذا كان السلوك غير القويم يحدث الاضطراب ، والقحط ، فالسلوك القويم يجلب الخير والبركات ، ويجعل كل مافى الكون يجىء على رغبة الإنسان ، والسبب فى ذلك أنهم كانوا يعتقدون أن المؤثرات فى الأكوان ترجع إلى ثلاثة :

أولها السماء ولها السلطان الأعلى ، وثانيها الأرض لقبولها أحكام السماء ، وثالثها الإنسان بما يؤثره بإرادته ، فإرادته الفضيلة وسلوكه سبيلها يجعل مظاهر الكون إلى خير الإنسان ، فالجو يمتلىء بالنسيم العليل ، والحرارة المنعشة والغيث المحيي لنبات الأرض من غير أن يخرب العمران .

١٢ — والإنسان مفطور على الخير عندهم ، سالك الطريق القويم لو خلى وفطرته ، ولكنه مع الفطرة الخيرية حى مستقل مفكر لا تمنع فطرته من النزوع إلى الشر وسلوك سبيله ، والارتطام فى حمأته ، وذلك لإرادته المستقلة واختياره ، واستيلاء الشهوات عليه ، ومع أنهم كانوا يؤمنون بالقضاء والقدر ويذعنون لأحكام السماء يجعلون للإرادة الإنسانية الشأن الأول ، وذلك لأن الإرادة الإنسانية للخير أو الشر لها أثرها فى الأكوان ، ولأن آلهتهم عادلة فزعموا أنها لعدلها تجعل مشيئتها فى الكون على حسب عمل الإنسان إن خيراً فخير له ، وإن شراً فشر له ، وأن أفعال السماء المسببة لفعل الإنسان لا تقبل التخلف قط ، لأنها جزاء ما قدم ، وأما أفعال السماء التى تكون حظا من غير تقدم الإنسان بسبب لها فهى تقبل التخفيف بالإرادة الإنسانية الخيرة أو الشريرة ؛ وفى هذه الحدود الضيقة كان إيمانهم بالقضاء والقدر .

١٣ — وطريق الخير هو الاعتدال والاقتصاد فى كل أفعال النفس وسجاياها ، فالقناعة مع الجد من غير استسلام فضيلة ، واللين من غير

ضعف فضيلة ، والرحمة مع العدل مع المسىء فضيلة أيضاً ؛ وكذلك التجمل مع السذاجة وهكذا كل الفضائل ، وأقصى الطرفين من إفراط أو تفريط رذيلة ويعدون الفضيلة طريق السعادة والرذيلة طريق الشقاء ؛ لأنه إذا كانت آلهتهم تغضب وترسل شواظا من نار على من يخالف قانون الأخلاق فالشقاء فى المخالفة والسعادة فى الموافقة ، ولأن الموافقة تجعل النفس متوافقة مع فطرتها سائرة منسجمة مع طبيعتها .

والرحمة أخص ما يجب أن يسود الناس من صلات ، فهى الرابطة التى تربط آحاد المجتمع بعضهم ببعض ، وهى التى تجعل الناس متحابين سعداء من غير عنف زاجر ، ولا قانون مشدد ، وإذا كانت الفضيلة فى عمومها طريقا لسعادة الآحاد ، فالرحمة التى تسود المجموع هى طريق سعادته ، فالمجتمع السعيد من كانت الرحمة هى الوحدة الرابطة بين آحاده ، وهى العلاقة المبينة حدود ما للانسان وما عليه ، وليست الرحمة عندهم هى العفو المطلق ، والتسامح المطلق ، بل الرحمة التى تسبب السعادة هى الرفق بالمجموع مع معاملة أهل السوء بما يستحقون من غير شطط ولا تفريط .وأما التسامح المطلق ، ولو مع المسىء ، فإنه رحمة ظاهرة تخفى فى ثناياها سترا للإجرام ، وذلك ليس من الرحمة الحقيقية فى شىء .

إذن فغاية الفضيلة فى عمومها وخصوصها عندهم الكمال الإنسانى ، والسعادة لبنى الإنسان ،وإقامة بناء المجتمع على التواد والتراحم والتعاطف.

١٤ — وقوانين الأخلاق لا تنفصل عن السياسة عند قدماء الصينيين ، فأقوم الأخلاق ينتج أقوم السياسة ، وأحب أنواع الحكم ، بل إن الحاكم لا يمكن أن يحمل الناس على الجادة من غير أن يحمل نفسه عليها ، وإن الملك الذى لا يسوس الناس ونفسه بالأخلاق القويمة ينزل عليه غضب

السماء ، وينزع منه الملك كما بينا سابقاً . فلا تسامح فى قانون الأخلاق ولو كان الآثم ملكا ، وبهذا أستمر العدل قائماً مع وثنيتهم وعدم تدينهم بدين سماوي .

ولم تكن هذه الآراء فلسفة لخواصهم تدرس ، وتناقش أصولها ، ولكنها كانت أعمالا للناس ، كما هى آراء للعلماء ، وبذلك كان مجتمع الصين القدماء يسوده الخلق الكامل ردحا من الزمان ، ولكن خلف من بعدهم خلف لم يسلك طريق الأخلاق ، فحوالى القرن السابع قبل المسيح حكمت الصين أسرة ارتكبت من الظلم والإثم ما أوقع الشعب فى الفوضى والاضطراب ، وجعل حكام الولايات يسيرون فى طريق من الاستبداد بر عاياهم لغير مصالحهم والشعب الصينى نفسه انحدر فى طريق الرذيلة والانحلال الخلقى ، وإذا تفاقم الشر ، وجمحت النفوس ، وتفشى الداء ، أعمل الفضلاء الجهد ، وأحسوا بعظم التبعة ، لذلك نجم فى آخر القرن السابع والقرن السادس قبل الميلاد عقول جبارة ، ضاعفت الجهود وبذلت أقصى المجهود لكى ترجع الأخلاق الصينية إلى غابرها ، وكانت دعوتها وحياً لعبقرية جبارة ، واستنباطا لما استقر فى أعماق القديم ، وإحياء للمدفون من كرائم العادات. وكان أبرز هؤلاء لوتس وكونفوشيوس .

١٥ — ظهر كونفوشيوس فى هذا المضطرب بعد لوتس ، وبعد أن جرب هذا كل آرائه فى إصلاح المجتمع الصينى . فلم يفلح إلا قليلا ، واضطر لأن يدعو إلى الانزواء والفرار إلى العزلة لذلك جاء كونفوشيوس محاولا إصلاح ذلك المجتمع بغير طريقة لوتس ، وبغير مذهبه ، وآراؤه فى الأخلاق تتجه إلى ثلاث نواح : الأولى فى بيان الأصل الخلقى الذى تقوم عليه الفضائل ، والثانية إصلاح المجتمع وحمله على السلوك القويم . والثالثة إصلاح نظام الحكم وتقييده بالفضيلة لا يعدوها .

أما الناحية الأولى فهى قوام فلسفته ؛ وهى الجزء النظرى منها ، وقد ابتدأ نظراته الفلسفية بنظرية تعيين المعنى واللفظ ، وتعيين الأسماء والمسميات ، وهى النظرية التى ابتدأ بها أيضاً سقراط من بعد كونفوشيوس وذلك لما تشابهت فيه أحوال العصرين اللذين عاش فيهما الفيلسوفان : فكونفوشيوس جاء فى وسط اضطراب خلق ، وتلاعب فى نظم الحكم ، وعبث بمصالح الدولة ، واللعب بالألفاظ لتوهين الأخلاق ، فكان لابد من العمل على تعيين المعانى الدالة على الألفاظ ليثبت المعنى مستقيماً ، لكى لا يمكن التلاعب به ، وإفساد الاستدلال من طريق ذلك التلاعب ، وكذلك سقراط وجد السوفسطائيين قد اتخذوا من اللعب بالألفاظ طريقاً لحل أخلاق الشباب الأثينى وإفساد اعتقاده ، والعبث بكل ما هو فاضل لديه ، ولذا كان أول ما دعا إليه سقراط تعيين المعانى الدالة عليها الألفاظ حتى لا يتخذ المفسدون من طريق اللفظ ما يفسد الاستدلال والتفكير .

دعا كونفوشيوس إلى العناية بمعانى الأسماء ، والألفاظ الدالة على المسميات ، وألحف فى تلك الدعوة ليقطع على المضللين سبيل التضليل ، ويفتح الباب ليستقيم طريق المعرفة من غير تمويه ولذا جاء فى كتاب الحوار لكونفوشيوس أن أحد تلاميذه سأله « بأى شىء يبتدىء سياسته إن تولى حكم الإمارة؟ » فقال: « لابد من تصحيح الأسماء » فدهش التلميذ من هذا الجواب . ووقع من نفسه موضع العجب . فقال كونفوشيوس : « إذا لم تكن الأسماء صحيحة لا يوافق الكلام حقائق الأشياء ، وإذا لم يكن الكلام موافقاً للحقائق وقع الخلط فى اللغة وفسدت الأمور فلا تزهر الآداب ولا الموسيقى ، ويضطرب التفكير ؛ ولا تنزل العقوبات على من يستحقها ، وإذا لم تنزل العقوبات على من يستحقها ، لا تعرف الرعية كيف يحركون أيديهم وأرجلهم ولذلك يرى الرجل الكامل أن من الضرورى أن توافق الأسماء مسمياتها

لمكن أن يتكلم بها . وأن يعمل بما يتكلم، والرجل الكامل الخلق لا يستهين بكلامه، ولا يهمل فى تعبيره » .

وعنايته بتعيين الألفاظ جزء من عنايته بأن يكون الشخص الكامل على تمام المعرفة بنفسه وبحقائق الأشياء ، فهو يحث على المعرفة الصحيحة ، ويعتبرها جزءا غير قابل للإنفصام من منهاجه الخلقى فيعتبر من كمال الفضيلة للرجل حسن إدراكه للأمور ، وقدرته على فهم ما يلقى بين يديه من المسائل من غير أن يدفعه الغرور إلى الضلال . ثم هو يدعو إلى التفكير القويم فى كل ما يلقاه الانسان ويرى شرطا لازما للتفكير أن تكون عند الشخص قبل التفكير مقدمات كافية لأن يفكر ، والتفكير لابد منه لكل معرفة ، ولذا يقول « من تعلم من غير تفكر وتدبر فهو فى حيرة ، ومن فكر من غير تعلم فهو على خطر الضلال » ويرى أن طريق العلم ألا يقيس الغائب على الشاهد لأنه تخمين ، ولا يجرى الحدس والتخمين فيما لا يعلم . لأن الظن لا يغنى من الحق شيئاً ، ولذلك يقول لأحد تلاميذه : « ألا أعلمك طريق العلم؟ اعتبر ما علمت معلوما . واعتبر ما جهلت مجهولا ، هذا هو طريق العلم » . ولا تظنن أنه يقصر الفضيلة على المعرفة بل أنه يرى أن المعرفة من طريق الفضيلة ؛ وليست هى الفضيلة ، كما يقول سقراط . بل هو يقول : « من يعلم الحق دون من يولع بطلبه ؛ ومن يولع بطلبه دون من يطمئن إليه دائماً » فالمراتب عنده ثلاث :

١) معرفة للحق مجردة (٢) وشوق إلى الحق ومحبة له (٣) وعمل به وارتياح النفس إلى العمل به ، مهما يكتنفها فى العمل به من صعاب وشدائد ثم يقسم الناس بالنسبة للمعرفة إلى أربع درجات : الدرجة الأولى درجة رجل وهبته السماء المعرفة ؛ وأوتى الإلهام ، وهى أعلى الدرجات ؛ والثانية درجة رجل لم يؤت إلهاما ولكن فيه ذكاء ؛ فتعلم ووصل إلى أقصى ما يتعلمه

من لم يؤت إلهاما . والدرجة الثالثة درجة الرجل الذى لم يؤت ذكاء ، بل فيه غباء ، ويطلب المعرفة ، وينال منها بمقدار طاقته ، والدرجة الدنيا وهي الدرك الأسفل . رجل حائر بائر فيه غباء وبلادة فلم يعرف ولم يحاول معرفة .

١٦ — وإن معرفة الإنسان لا يمكنها أن تصل إلى الغايات من الأشياء بل أقصى ما يمكن أن تصل إليه هو معرفة ما يمكن أن تعرفه ، وهو النواميس والقوانين التى تسير الأكوان على مقتضاها ، فإن العالم فى نظره محكوم بقوانين لا تقبل التخلف ، قوامها التآلف والانسجام بين أجزائه ، فالسماء والأرض والإنسان قد ارتبط ثلاثها بنظام محكم وبقوانين مؤلفة بينها ، وأن ذلك النظام قد يمكن أن يعرفه الإنسان ، ولا يمكن أن يعرف علته الغائية ، ولا مبعثه ، ودوافعه ، وإن الشر كل الشر أن يكون فى تصرفات الإنسان ما يحيد به عن النظام المؤتلف بين الإنسان والاكوان ، وذلك بأن يرتكب من الشر ما يكون سبباً فى أن تنزل السماء عذاباً ، ولذلك يقول فى الحوار: « لو ارتكبت ما لا يليق غضبت على السماء » .

ولذلك كان تحلى الإنسان بالفضيلة ، هو الذى يجعله مؤتلفا مع نظام السموات والأرض ، ولأن العالم يسير بنظام وقوانين محكمة ، كانت طبيعة الإنسان وفطرته إلى الخير لكى يكون النظام هو السائد ، ولذلك يقول كونفوشيوس كما كان يعتقد من سبقه من حكماء الصين وفلاسفته إن النزوع إلى الخير والفضيلة طبعى فطرى فى الإنسان ، فليست الفطرة الإنسانية ميالة إلى الشر نزاعة إليه ، بل إنها خيرة ، ولكن للإرادة المستقلة التى منحها الإنسان ، وللشهوات واللذات التى يمكن استحواذها عليه يشذ عن داعى الفطرة ونداء الطبيعة ويتجه إلى الشر ، ويفعل ما ينزل به غضب السماء فى زعمهم ، ففى النفس ينابيع صافية المورد للخير ، وفيها استعداد للشر

إن عرض لها عارض اللذات والشهوات ، فالأصل للنفس الخير والشر عارض ، وإذا كانت النفس فى أصل فطرتها الخير ، والشر انحراف عن الفطرة ، فالحكيم إذن من عمل على إحياء الفضيلة بتنمية قوى النفس الخيرة وتصفية ينابيعها من كدورة اللذة ، واعتكار الشهوات ، فإن النفس كصفحة الماء الصافية المستوية واللذات كالأحجار تقذف فيها ، فتحدث فيها اضطرابا ، وتثير فيها اعتكاراً .

١٧ — وإذا كانت الفضيلة من دواعى الفطرة السليمة فطلبها من كمال الإنسانية ، إذ رغبة الخير فطرية فيه . وعلى ذلك يطلب الإنسان الفضيلة لارجاء منفعة ، ولا دفعاً لمضرة ، ولا جلبا للذة ، ولا دفعا لحرمان ، ولكن يطلبها لأنها كمال إنسانى ، فهو يقول فى الفصل الرابع من كتاب الحوار (١) « الرجل الكامل الخلق يطلب الفضيلة ، والرجل الناقص الخلق يطلب اللذة ، والرجل الكامل الخلق يفكر فى اجتناب الرذيلة وأداء الواجب ، والرجل الناقص يفكر فى كسب المنافع ... والرجل الكامل الخلق واقف على البر ، والرجل الناقص الخلق واقف على الربح » .

فالفضيلة عنده لا تطلب لما فيها من لذات ، ولكن تطلب لأنها كمال الإنسان ولأنها الفطرة السليمة ، والطريقة التى بها يتم التآلف والانسجام بين الإنسان والعالم وإذا تمسك الشخص بالفضيلة وابتعد عن الانحراف عن

---

(١) يوازن العلماء بين رأى كانت الالمانى فى العصر الحديث ، ورأى كونفوشيوس الصينى الذى عاش قبل الميلاد بأكثر من خمسة قرون فيجدون توافقا بين رأى الحكيمين فى الأخلاق ، فكانت يقرر أن ينبوع الخير فى الإنسان بمقتضى الفطرة ، لأن الأنسان يجد فى نفسه لائما أن فعل مالا يليق ولا يرتكب جريمة شاعرا بها إلا على نية إلا يعاودها ، والشعور القوى الذى يكون فى نفس كل انسان بان يتجنب السلوك الذى لو سلكه كل الناس فسد المجتمع .

سبيلها ، وتجنب الخضوع الملاذ ، سهـــل عليه كل صعب ، وهان عليه كل شاق ، وإن رياضة النفس على الفضيلة ، تجعل الشخص يحتمل الفقر والغنى فإن افتقر لم يهن ، وإن غنى لم يطغ ولم يأشر ، ولذا يقول فى كتاب الحوار « الرجل غير الفاضل لا يستطيع أن يبقى فى الفاقة أو الثروة طويلا ، أما ذو الفضيلة فهو مستريح فى فضيلته ، حريص عليها » .

وإن كانت الفضيلة لا تطلب إلا لأنها السنة، والانسجام ، وتزكية النفس الإنسانية ، فمن ثمراتها الراحة ، والاستهانة بالآلام ولذا يقول : « ذو الفضيلة يستبشر بالماء الجارى ، وذو الفضيلة يستبشر بالجبل الراسى ، وذو الفضيلة نشيط ، ورزين ، ومعمر » فالفضيلة عنده روضة فيها الراح والريحان ، والسر والاطمئنان أما ذو الرذيلة فهو فى شقاء وبلبال مستمر ، وينزل عليه غضب السماء جزاء ما قدمت يداه واقترفت نفسه، ولذا يقول: « يولد الانسان مستقيما فمن فقد الاستقامة واستمر حيا ، فنجاته من الموت من حسن حظه » .

١٨ — ولكن الفطرة قد يغالطها الإنسان ، فيزعم أنه سائر على مقتضاها مؤد للواجب سالك سبيله ، وهو يجرع من اللذات والشهوات فكيف يأمن الشخص هذا العثار؟ وكيف يطمئن إلى أن ما يسلكه هو موجب الفطرة ،وهو الفضيلة ؟قد عالج كونفوشيوس هذه الحال ويفهم من حواره مع تلاميذه ومن مجموع آثاره أنه يوجب على الشخص أن يراقب نفسه ويلاحظ البواعث التى تبعثه على الأعمال ، فإن كانت هى المنفعة الشخصية أو اللذة فهو قد حاد عن السنة. وإن كان الدافع الإخلاص والحق فى ذاته فهو الفطرة ، وهو السنة، وهو الصراط المستقيم ، والسلوك القويم ، ولذلك هو يقول عند الحكم على الأشخاص أهم إلى هدى أم إلى ضلال : « انظر إلى أعمال الناس ، ولاحظ بواعثها ، وراقب ما إليه يستريحون فأين يخفى الناس

سرائرهم !! أين يخفى الناس سرائرهم !!، إذا كانت ملاحظة الدوافع سهلة على الشخص إذا كانت فى غيره ، فكيف يصعب عليه أن يلاحظ دوافعه ؟ ثم هذه الملاحظة تدفع الفيلسوف الكبير إلى أن يدعو الشخص إلى التأمل النفسى ، ومراقبة وجدانه ، لتستيقظ نفسه اللوامة ، وتحاسبه على ما يقدم عليه من عمل ، ويكون من نفسه رقيب عليه شديد المراقبة ، قوى الحس ، صادق الحساب ، لايترك صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها .

ولقد قال أحد تلاميذه : « أراقب نفسى وأسائلها كل يوم .هل خانت عندما تولت شئون الناس ؟ هل كذبت عندما عاملت ؟ هل كانت غافلة عن العمل بما تلقته من العلوم ؟ » .

بهذه المراقبة الشديدة يأمن الرجل أن يحيد عن الفطرة . وأخشى مايخشاه كونفوشيوس على الفطرة اللذات من أن تطمس نورها وهداها ، ولذا كان يحث على الخشونة فى العيش لكى تكون اللذات أمة للشخص ولا تكون سيدا مسيطرا عليه . ويرى أن تعود ترك اللذات مما يساعد على اتباع الفطرة الخيرة ولذلك يقول : « إذا عزم المتعلم على طلب الطريقة الموافقة للفطرة السليمة وهو يأبى الملبس الخلق ، والمطعم الجشب فهو غير خليق بأن يحاضر » .

وإن تلك المراقبة النفسية وتعود النفس خشن الحياة والسيطرة على اللذات والشهوات أول ثمراتها التمسك بالفضيلة والتمسك بالآداب ، وأول ثمار التمسك بالآداب حسن المعاملة وحسن العشرة مع غيره من الناس ولذا يقول : ثمرة الآداب حسن العشرة ، وإنما تستحسن سنة السلف الصالح لاشتمالها على هذه الصفة التى تراعى فى جميع الشئون صغيرها وكبيرها ، ولكن لو روعى حسن المعاشرة من غير أن يضبط بالفضيلة ما استقامت الأمور » .

فهو يرى أن المظهر الحسى للفضيلة حسن المعاملة والمعاشرة المقيد بقيودها ، ومن هنا نرى أن آراءه فى الأخلاق تبتدىء من الفرد . وتنتقل إلى إصلاح الجماعة بأن يكون الأفراد جميعا مقيدين أنفسهم بالفضيلة بحيث يجعل كل شخص من نفسه دافعا للفضيلة يبعثه على أن يعامل غيره معاملة مقيدة بالأخلاق الفاضلة ، فلا يظلم ، ولا يتعصب ولا يغلب رغباته ، ولا يجعل من نفسه مغلبا على الآخرين . ولذا جاء فى كلامه « الرجل الفاضل لايتحيز ، والرجل الفاضل لايتعصب » وهذه كلها آراء لو تمسك كل واحد بها لقامت جماعة فاضلة يرتبط آحادها بالخلق القويم من غير منافسة ، ولا مغالبة ، ولا تناحر .

١٩ — نرجو بهذه الكلمات أن نكون قد بينا فلسفة كونفوشيوس الخلقية ولننتقل إلى الناحية الثانية من نواحى آرائه ، وهى محاولته إصلاح المجتمع. ومما تقدم نرى أن اصلاح المجتمع فى نظره غير عسير بله غير متعذر وذلك أن يتمسك كل آحاده بقانون الأخلاق ، ولكن كيف السبيل إلى حمل العامة على التمسك بقوانين الأخلاق ؟ يرى ذلك غير عسير ، ولابد من عاملين أحدهما دعوة الرجل إلى الاخلاق ، وانتشاره فى الناس ، وثانيهما جعل القائمين بشؤون الحكم متمسكين بقوانين الأخلاق . ولنترك العنصر الثانى إلى موضعه من الكلام على الناحية السياسية فى آرائه الخلقية ، أما دعايته إلى الأخلاق الفاضلة فقد سلك فيها ثلاثة مسالك .

المسلك الأول أنه دعا إلى احترام الآباء ، والعناية بشدة إلى تماسك الأسرة ، ولذا ترى فى كتبه عبارات كثيرة فى الدعوة إلى احترام الآباء وجعل ذلك أساساً من أسس الكمال فى نظره ، فهو يقول : « واجب الولد البر بأبويه إذا كان داخل المنزل ، والاحترام لذوى الأسنان إذا كان خارجه ، والصدق فى أقواله ، والرحمة بالناس فى كل أفعاله ، وأن يتقرب إلى الفضلاء ،

وإذا كان لديه فراغ من الوقت زجاه فى كتب الأخلاق ، ولا شك أن الشخص إذا عنى بالبر بالوالدين العناية الكافية لم يكن منه فى حضرتهما إلا ما يليق بالرجل الكامل .

فملازمتهما مع العناية بالتجمل بالكمال فى حضرتهما أمداً طويلا يجعل الشخص يعتاد الفضيلة والسلوك الحسن ، ولعل هذا هو السر فى أن الإباحية إذا سادت زمنا من الأزمان صحبها انحلال الأسرة ، وفك عقدة الاحترام التى بين الآباء والأبناء .

المسلك الثانى من مسالكه فى الدعوة إلى الفضيلة مسلك التدرج فهو كان يدعو إلى الأخلاق فى رفق ، ويعطى كل واحد من الناس مقدار طاقته فى دعوته ، فهو يقول : « من الناس من نستطيع محادثته فى العلم ، ولا يمكن أن نحمله على السير معنا بمقتضى الفطرة ، ومنهم من نستطيع أن نسير بهم على الفطرة من غير أن يكونوا ذوى قدم ثابتة فيها ، ومنهم من يكون ذا خلق قويم شديد التمسك بالفطرة والكمال الإنسانى ، ولكن لا يمكننا مشاورته فى تقدير الشئون » .

فهذه الطبقات المختلفة فى استعدادها لقانونه الخلقى كل طبقة لها حظ من الإصلاح تعالج به ، وتحمل على سلوك الجادة بمعالجته ، وقد حكى عنه أحد تلاميذه الذين لازموه أشد الملازمة أنه كان يرشد الناس بالتدريج إرشاداً حسناً ، ولننقل كلام ذلك التلميذ المخلص فهو يقول فى وصف آراء أستاذه وأثرها فى نفسه « إذا رفعت إلى آراء الاستاذ النظر رأيتها أعلى مما كنت أعتقد ، وهى ملء نفسى ، وتحيط بى ، وتستغرق كل حسى ، والأستاذ يرشد الناس بالتدريج إرشاداً حسنا ، وقد وسع بالعلوم مجال فكرى ،

وضبط بالآداب سلوكى ، حتى أنى لو رغبت فى ترك آرائه ما طاوعتنى نفسى » .

المسلك الثالث من مسالك دعوته إلى الخلق القويم القدوة والأسوة فهو يرى أن الرجل الفاضل يستطيع أن يؤثر بسلوكه القويم أكثر من أى بيان مهما تكن بلاغته ، ومن غير أن يتهم بالرياء فى دعوته ، ولقد كان يدعو تلاميذه إلى السلوك الخلق بأخلاقه ، كما دعاهم بكلماته ، فهو الذى يقول لهم: « أتظنون أنى أخفى عليكم شيئاً ، ما من أمر أعمله إلا فيه ارشادكم ، وهذه هى طريقتى فى التربية ».

٢٠ — كان إذن من مذهب كونفوشيوس أن يختلط بالناس ليصلحهم وليس من مذهبه أن يعتزل الناس وينقطع عنهم ، ولذا جا فى كتاب الحوار « لا يمكن أن أعاشر الطيور والوحوش ، فلو لم أعاشر هذه الأمة ، فمن الذى أعاشره؟ لو كانت البلاد تحت سيادة عادلة ما كنت فى حاجة إلى محاولة لإعادة نظامها » .

وهنا يفترق نظر كونفوشيوس عن نظر الفيلسوف « لوتس » صاحب مذهب الطاوية . فنرى لوتس بعد أن جرب وخالط الناس ، وحلب الدهر أشطره . وعرف حلوه ومره ، انتهى الى أن صار يرى أن الخير ليس فى محاولة اصلاح المجتمع الفاسد بالعمل والنشاط والدعوة ، بل الخير كل الخير فى الزهادة والاعتزال ، فلما التقى به كونفوشيوس ، وهو شاب متفتح الآمال ، مزدهر النفس ، وحاوره قال الشاب للشيخ : اذا كان واجب كل شخص من آحاد الأمة أن يعتزل فى كهف من الكهوف ، فمن الذى يبقى فى المدن يعمرها ، وفى الأرض يفلحها ويزرعها ، وفى الصنائع يمهر فيها ، ومن الذى ينسل ويعمل ليبقى الكون عامراً ببنى الإنسان ؟ واذا كان

الاعتزال مقصوراً على الحكماء والفضلاء فمن الذى يربى الإنسان ويؤدبه ؟ أم يترك الناس حائرين بائرين لا هادى ولا مرشد » .

لذلك يتجه كونفوشيوس إلى الجماعات يصلحها ، ويؤدبها ، ويعظها ، ولا يعتزل ويترك الناس فى غيهم يعمهون . ولم تكن هذه النقطة وحدها هى التى افترق عندها الحكيمان ، بل تخالفا فى أساس آخر من أسس المعاملة بين الناس ، وهى جزاء السيئة أهو سيئة مثلها أم عفو وتسامح؟ يرى لوتس أن الصفح والعفو هو مايجب أن يعامل به المسىء ، أما كونفوشيوس فيرى أن المسىء يعامل بالعدل وليس من العدل العفو عن سيئته ، بل أخذه بجريرة عمله ، فالمسىء لا يعفى عنه ، ولكن يعدل معه لا يظلم ولا يظلم .

٢١ — ولنترك الآن محاولته أن يصلح الأخلاق بشخصه من غير أن يستعين بسلطان الحكم ، ولننتقل إلى الناحية الثانية من النواحى الخلقية ، وهى آراؤه فى السياسة ، ولا نقصد بآرائه السياسية ما يجرى به العرف الآن من الآراء فى أصل نظام الحكم ، ولون النظام أهو ديمقراطى أم ارستقراطى أم حكم الفرد ، ولا بيان توزيع السلطات فى الدولة ، واختصاص كل سلطة فتلك أمور لا تعنيه ولكن الذى يعنيه هو مقدار القسط الذى يقوم به الساسة من إصلاح فى الأخلاق ، وما يجب أن يتبعوه ليكون حكمهم صالحا للوصول إلى الغاية منه ، وهى اصلاح أخلاق العامة ، وما يجب أن يتصف به الحاكم من أوصاف ويتحلى به من أخلاق وما يصح أن يكون موصلا لتولى المناصب ، ثم الأوصاف العامة للحكومة الصالحة للقيام بهذه المهمة الخلقية ، وواجب الحكماء عند تنكب السبيل ، هذا ما يعنى به كونفوشيوس وما نشير إلى آرائه فيه فى هذه الإلمامة الموجزة .

يرى كونفوشيوس أن السياسة الحكيمة هى ما تقوم على الأخلاق

القويمة ، فليست السياسة بمنفصلة عن الأخلاق ، ومن فصل الأخلاق عن السياسة فهو لم يفهم الغاية من السياسة ، ولا الغاية من الأخلاق فى نظر كونفوشيوس ، إن الغاية السامية من السياسة هى اصلاح الأخلاق ، وقد يكون من واجب الدولة أن تعنى بتوفير الخبز للعامة ، وأن تعنى بالقيام على الميزانية ، وتنظيم دخلها وخرجها ، ولكن الغاية السامة أو الواجب الأمثل هو فى اصلاح أخلاق الناس وتهذيبهم ، وليس السياسى المستقيم من يستطيع أن يحكم بالعدل والإنصاف فقط بل السياسى حقا من يستطيع أن يهذب الرعية حتى لايكون ظلم ، ولذا يقول : « إنى فى الفصل بين المتخاصمين كغيرى من الناس ، ولكن السياسة الحكيمة أن تهذب الرعية ، حتى لاتكون مخاصمة » .

٢٢ — ولكن كيف السبيل إلى ذلك ؟ لقد رام صعبا وطلب عسيراً ، هذا ما يبدو لنا ، أما هو فيرى أن الأمر ليس من العسر بالقدر الذى يلقى اليأس فى قلب الحكيم الطالب للإصلاح الذى يسلك سبيله ، فهو يرى أن الملوك والقادة فى السياسة يؤثرون بأخلاقهم أكثر مما يؤثرون بقوانينهم ، فهو يعتقد اعتقادا جازما أن العامة يسيرون على أخلاق حكامهم ، فإن كان حكامهم صالحين صلحوا وإن كانوا معوجين فسدوا ، ولذلك يجعل أساس اصلاح أخلاق الناس أن يكون حكامهم ذوى أخلاق ؛ فهو يقول فى قوة وإيمان بما يقول « إن الحاكم إذا شغف بالآداب الفاضلة لايجترىء أحد من رعيته على إهانة غيره ، وإذا شغف بالصدق لا يجترىء أحد على الكذب ، ومن هذه حاله أقبل عليه الناس حاملين أولادهم على ظهورهم » .

فاقتداء الناس بحكامهم الصالحين هو الطريق الأول لتهذيب الناس ، وهو لا يعتقد أن تحلى الحكام بالأخلاق الفاضلة أساس اصلاح العامة فقط . بل أساس طاعتهم أيضاً ، فإن الناس لا يطيعون إلا من يرون فيه الاستقامة والمحافظة

على الآداب العامة ، فهو يقول : « ان كان سلوك الرئيس مستقيما أطاعه المرءوسون من غير أن يأمرهم ، وإن كان غير مستقيم لم يطيعوه ولو أمرهم، هو لهذا لا يفهم أن الطاعة بالأحكام الرادعة ، والقوانين الزاجرة ، والأوامر القاسية ،إنما الطاعة فى نظره ما كانت عن رغبة النفس،واقتناعها، بأن الحق فيما تؤمر به وتدعى إليه ، وليست إجابة الأمر مكرهة تقى المجيب وهو يحاول التخلص من تأنيب الضمير ، ولذلك يرى أن قيادة النفس بالآداب والأسوة الحسنة هى التى تتبعها الطاعة التى لا يحاول الشخص فيها العصيان إلا وتأنيب الضمير يرصده ، فهو يقول «الرعية إذا قدتها بالأحكام الصارمة والعقوبات الزاجرة فستحاول التخلص منها . وهى غيره مستحيية من مخالفتها ، وإذا قدتها بالفضائل وأصلحتها بالآداب تستحيي من ارتكاب الجرائم وهى صالحة » .

٢٣ — ثم إن أول الأسس التى يجب أن يعتمد الحاكم عليها ثقة الرعية به ونيله محبتها ، فيجب أن يعمل على نيل هذه الثقة ، واجتذاب الجماهير لتجد أوامره إجابة من القلوب ولا تجد مظهرا من الخضوع ، ولذلك يوصى الحكام بالعناية بهذه الثقة إلى درجة أنه يرى أن العمل لها يكون قبل العمل لقوت الناس أو الإعداد للحروب ، لأنها أساس قوة الحكم ، وهو من غيرها قسر وإرهاب وإرهاق وعنت يولد الخوف .

وإن أطاع الناس رهبة وخوفا انقطع الحبل الموصول بين الحاكم والمحكوم ، فتضطرب الأمور وتهزع الأخلاق وتفسد النفوس . سأله أحد تلاميذه عن ضروريات السياسة فقال : « من ضروريات السياسة الأقوات الكافية وذخائر الحرب الواقية ، وثقة الرعية .

فقال التلميذ « لو اضطررنا إلى حذف واحد من هذه الثلاثة فبأيها

نبتدىء بالحذف ؟ قال : « احذفوا ذخائر الحرب » قال : « لو اضطررنا إلى حذف أحد هذين الأمرين فأيهما نحذف ؟ وأيهما نبقى ؟ »

قال : « احذفوا الأقوات ، فإن الموت حظ الإنسان منذ الغابر من الأزمان ، ولكن السياسة لاتقوم إلا بثقة الرعية » .

وإذا كانت ثقة المحكومين أساس الحكم ، فالواجب الأول على الحاكم لكى يقوم بواجبه الخلقى على الوجه الصحيح أن يجتهد فى العمل على جلب هذه الثقة ، ولا شك أن أخذه هو بمبادىء الأخلاق أساس لجذب ثقة الناس اليه ، والقرب من الناس والتدانى مع الاحتشام والتجمل والوقار كذلك فلا يجعل هوة بينه وبينهم ، ولا يتبذل معهم فى قول أو عمل ، ويرى أن الشفقة بالناس أساس من أسس الثقة وداع من دواعى الإخلاص للحاكم .

سأله أحد تلاميذه قائلا : « كيف يجعل الحاكم رعيته يجلونه ويثقون به مخلصين ويتواصون بالخير فيما بينهم ؟ » فقال مجيبا : « إذا قابلهم بالسمت والوقار أجلوه . وإذا كان بارا بوالديه شفيقا على قومه أخلصوا له ، وإذا رفع الصالحين وأعان العاجزين تواصوا بالخير » .

٢٤ — وإن من أشد الأمور لزوما لجذب ثقة الناس والوصول إلى الغاية السامية من السياسية ، وهى التهذيب أن يولى الحاكم الصالحين فإذا كان « كونفوشيوس » يرى أن أولى طرائق تهذيب الناس ، وحملهم على السير على الجادة الاقتداء بالحاكم فى سلوكه القويم ولذا أوجب أن يكون سلوكه على سمت الأخلاق ، فكذلك يجب أن يكون أعوانه من هذا القبيل فلا يولى إلا الصالحين ، وينزع الولاية من الطالحين ولا يدنيهم إليه ، فإن إدناءهم منه مضعف للثقة به . ولقد سأله أمير مقاطعته قائلا : « كيف تكتسب طاعة الرعية ؟ » فأجابه بقوله : إذا أعلى الصالحون وأبعد

الطالحون أطاعت الرعية واذا أقصى الصالحون ، وأدنى الطالحون عصت الرعية ، فولاية أهل الصلاح فى نظره تجذب الناس إلى الثقة بالحاكم ، وتحملهم على طاعته ، وتساعد الحاكمين على الوصول إلى غايتهم السامية من تهذيب الاخلاق ، ولذا كان يقول : لو تداولت أيدى الصالحين شئون الدولة لمدة قرن واحد لتهذب الظالمون جميعاً ، ولا ستغنى الحاكم عن عقوبة الإعدام .

ولأنه يرى أن تولى الصالحين يعين الحاكم على تنفيذ مهمته الخلقية يستحسن لذوى الأخلاق والصلاح أن يتولوا مناصب الدولة ويطلبوها إن كان الحاكم عادلا ، لأن من يتولى المنصب من قبله يعينه على العدل ، بل ان تقديم الخدمة فى ذلك الوقت فريضة لازمة على أهل الصلاح ، ولذا يقول فى قوة :

« آمن بالحق ، وأحب العلم ، واتبع الفطرة ، ولا تقم فى مملكة سادتها الفوضى واطلب المنصب إذا كانت البلاد محكومة بسياسة حكيمة ، واعتزل إذا كانت تحت سياسة غاشمة ، فمن العار أن تفتقر وتبتعد ، والبلاد تحت سياسة عادلة ، ومن العار أن تغنى وتعتز والبلاد تحت سياسة غاشمة » .

وإن كان طلب المنصب لازما على من هو أهل له إن تعين فمن الواجب قبله أن يعنى الرجل بتأهيل نفسه له ، فليس الغرض أن يتولى ليستمتع بسلطان الحكم ، وجاه المنصب ، بل الغرض أن يصلح ويعين على الإصلاح ، فهو لا يطلب المنصب ، لأنه رغبة يؤلمه الحرمان منها ، بل يطلبه لأنه تكليف إذا توافرت المؤهلات له ولذا يقول :

« لا يكن همك أن تتولى المنصب ، بل ليكن همك ما يؤهلك لهذا المنصب ، ولا تهتم بجهل الناس قدرك ، بل اهتم بالفضل الذى تريد أن يعرفوك به »

ثم إنه يوجب على طالب المنصب ألا يجعل عنايته موجهة إلى مقدار المرتب من المال ولكن ليجعل عنايته فى القيام بالواجب لذات الواجب. ولذا يقول:

« من يخدم الأمراء فليجعل العناية بأداء الواجب فى المحل الأول، وأمر الراتب فى المحل الثانى ».

فالإخلاص للواجب هو الأمر الذى يجب أن يعنى به صاحب المنصب. ذكر أحد تلاميذه أن وزيراً من الوزراء تولى رياسة الوزارة ثلاث مرات، فلم يظهر على وجهه أمارة الابتهاج فى واحدة منها، واستقال ثلاث مرات، فلم يبد فى واحدة منها على وجهه الاكتئاب بل كان يخبر الوزير الجديد بجميع ما حصل فى شئون الدولة فى عهده، فقال كونفوشيوس « قد كان مخلصا »، فالإخلاص على ذلك فى نظره يجعل طالب المنصب يطلبه لأنه واجب من غير أن يطير فرحا لأبهة الحكم، ويتركه لعجزه عن أداء الواجب من أن يمضه الألم لفقده جاه السلطان، فالمنصب توليه واجب لذوى الأهلية له، ليس فيه مغنم للمخلص. ولا فى فقده مغرم، لا يطلب للشهوة ولا يشعر المخلص عند تركه بمضاضة الحرمان.

وبينما هو يرى أن الفضلاء إن سعوا للمناصب فى الحكومة الفاضلة، فقد سعوا فيما هو حق وواجب، يرى أن الواجب على الصالحين أن يعتزلوا المنصب إن كانت الحكومة غير صالحة، وعجزوا عن إصلاحها لشهوات استمكنت فى رءوس من هم أعلى منهم، وتعذر عليهم حملهم على الدرب وقد اعتزل هو منصبه لما رأى أن أمير المقاطعة قد استولت عليه الشهوات واستحوذت على بصيرته، ولما ناقشه تلاميذه فى اعتزاله مناصب الدولة قال لهم: « لماذا يهمكم أن يفقد أستاذكم منصبه !! إن البلاد قد خلت من

العدل والاستقامة من زمن بعيد ؛ وستتخذ السماء أستاذكم ناقوسا لها .

٢٥ — وإذا كانت الحكومة مستقيمة وهى التى يكون الحكم فيها على مقتضى قانون الأخلاق كان من آثارها أن تكون الأمة قوية شجاعة مهما أحاط بها من أسباب الضعف ، ومهما يكن بها من فقر فهو يرى أن الفضيلة تجعل النفس عامرة بالشجاعة ممتلئة بالقوة مطمئنة إلى الغاية وهو يرى هذا الرأى واثقا به ولم يكن قد رآه عن حدس وتخمين وتخيل جميل بل قد رآه عن خبرة وتجربة .

ومجمل ما يقال فى سياسة هذا الحكيم أنها الأخلاق الفاضلة فهى عدة الحكام وعتادهم وهى غايتهم ومرتجاهم وهى المطمح الاسمى وهى البذرة الصالحة يلقيها الحاكم فى أمته فتنبت أزكى النبات وتثمر أطيب الثمرات . وما كان هو إلا نموذجا للحاكم الصالح ، حكم فلم يخالف حكمه آراءه ولم يباعد السلطان بينه وبين كلماته . ولقد قال فيه أحد تلاميذه : « إن رتبة الأستاذ « كونفوشيوس » لايمكن أن يصل إليها أحد كما أن السماء لايمكن أن يصعد اليها أحد ، لو كان للأستاذ حظ من الإمارة أو الرياسة لصدق عليه قول القائل : إن أقام الرعية قاموا سراعا وإن هداهم سارعوا وإن أراحهم آووا منه إلى ظل وارف وإن عاش عاش جليلا وان مات لقيت بموته النفوس حسرات فكيف يمكن أن يصل إلى رتبته غيره ! ! »

٢٦ — هذا هو الفيلسوف الحكيم الذى لاتزال الصين تجله على اختلاف مللها ونحلها ، وهذه اشارة موجزة إلى آرائه الخلقية التى لاتزال فى الصين نبراسا يهتدى به الكثرة الغالبة فيهم . ويجدر بنا أن نقول إن ذلك الحكيم لم تكن عنايته الكبرى متجهة إلى تأليف كتب ، ولكن عنايته كانت متجهة إلى تكوين نفوس ، وإلى تربية طائفة من التلاميذ يكونون نواة لتربية

جيل ، وبذلك تتوارث آراءه الأجيال ، وجدتها لا تبلى لأنها تجد غذاءمن نفوس الناس .

ولقد دون تلاميذه آراءه ، ومنها بين أيدينا كتاب الحوار ترجمه من الصينية إلى العربية صديقنا الأستاذ محمد مكين . وهو روضة ناضرة الأزهار يرى فيها القارىء صورة صادقة لآراء كونفوشيوس الخلقية والسياسية ويستشف من ثناياه روح العطف بين الاستاذ والتلميذ إذ يرى فيهم أسرة شريفة لم تجمعها لحمة نسب أو صلة ، ولكن جمعتها لحمة علم وعاطفة رحمة .

ولكونفوشيوس مؤلفات أخرى ألفها هو ، وهى تلخيصات وشروح للكتب المقدسة القديمة التى نسخها وشرحها وعلق عليها إحياء لآداب القدماء من الصينيين ، وقد كانت شروحه وتعليقاته متضمنة منهجه وآراءه فى الدين والاخلاق ، والسلوك القويم .

وثنية اليونان

١ — اليونان الأقدمون كانوا يؤلهون ظواهر الطبيعة ويعبدونها ، كما فعل المصريون من قبل ، وذلك ظاهر فى آلهتهم الأولى ، فإنهم ألهوا السماء، والأرض والبحر ، والشمس ، والزمن ، ولكنهم لم يقفوا عند هذا الحد ، بل لحظوا بعد ذلك الصفات الأدبية فى الأحياء ، وفنونهم ، وما يؤثر فيهم فجعلوا لكل واحدمنها إلها أوإلهة . ومن هذه الآلهة هيرا ربة القوة المنتجة فى الطبيعة وآريس أو المريخ إله الحرب وأبولون إله الموسيقى والنور ، وهراميس رسول الآلهة ورب الفصاحة والبيان ، وأثينا ربة الحكمة وافروديت ربة الحب الجميل وديونيسوس رب الخمر والتمثيل و ،لتيراجيني، أو الحزن .

٢ — وكان لكل مدينة أربابها الخاصة بها ، ومعبودات لها كثيرة ، وإن اتحدت فى الاسم مع أرباب المدينة الأخرى فالمسمى يختلف ،فأبولون فى مدينة ليس هو ابولون فى مدينة أخرى ، وإن اتحد الإسمى ، ولكن مع هذا الاختلاف كانت هناك أرباب كثيرة أجمع اليونان فى الجملة على عبادتها وتقديسها كالسماء والأرض والبحر ، ولها فى كل مكان معبد خاص بها ، أو مزار يتقرب فيه اليها ، وإن الأرباب التى يشترك اليونان فى تقديسها كثيرة جدا ، وكلها يمثل أعظم القوى الطبيعية تأثيرا فى الكون ،ومن هذه زيوس المشترى ، وهيرا وائينا وارتيمس وهرميس (عطارد) وأريس (المريخ) وافروديت (الزهرة) وكرونوس (زحل) وهكذا .

٣ — وأرباب اليونان يزعمون لها التجسد ، ويتصورون لها حياة كحياة

الإنسان وعلى أكمل وجه من أوجه الحياة الإنسانية الجسدية والشهوانية والنفسية، فيصورون إلههم كائنا حيا فى أبهى مظاهر الحياة من الصور البشرية، ويتمثلون المعبود أو المعبودة على صورة رجل جميل الطلعة أو امرأة وسيمة المحيا، ويذكرون لآلهتهم من الصفات ما يليق بالإنسان من اعتدال قامة، واتشاح بالثياب الجميلة، وتحل بالذهب والفضة. وهذا هو ميروس فى احدى قصائده يقول عن بعض الآلهة « أنداريس وأثينا كانا يقودان الجيش وكلاهما متشح بالذهب، وكانا من الجمال والاعتـــدال على صورة تليق بالأرباب، إذ البشر أقزام قصار القامات » ولكل رب من أربابهم هيئته وهندامه وخصائصه فالربة أثينا ربة الحكمة عندهم مثلا على صورة عذراء ذات عينين براقتين، تحمل رمحا، وعلى رأسها خوذة، وعلى صدرها سلاح لامع.

وللأرباب كما للبشر أقرباء وأولاد وأسر، فأمهم ربة واخوتهم أرباب أو نصف أرباب، وللأرباب تاريخ وحوادث وقصص، فالرب (أبولون) له ولد مثلا ولد فى جزيرة ديلوس، وكانت لجأت إليها أمه.

ولقد صوروا لكل رب من هذه الأرباب تمثالا يعبد. ولقد كان للتماثيل الكبيرة محال خاصة بها يزعمون أن الآلهة توحى إليهم فيها على لسان الكهنة، ويتقربون فى تلك المحال للآلهة بالقرابين والنذور، وأشهرها معبد (دلفى) لأبولون بمدينة (فوكيس).

وقد بقيت تلك الديانة، حتى ظهرت المسيحية فغالبتها حينا من الزمن وقضت عليها، ولكن بعد ان أثرت أبلغ الأثر فى المسيحية فلسفة الإغريق، وفنونهم.

وثنية الرومان

١ — اعتقد الرومان، كما اعتقد اليونان من قبل بأن كل ما يحدث فى هذا العالم هو مما قضت به إرادة خالق له: ولكنهم لم يعتقدوا بوحدانية الخالق، بل عددوا أربابهم بتعدد مظاهر الطبيعة التى تتجلى فيها أوامر آلهتهم ونواهيها، فهناك رب ينبت البذر، وآخر يحمى الحقل، وثالث يحرس الثمار وهكذا، ولكل رب اسمه وجنسه وعمله، فعندهم للسماء إله وللحرب إله وللشجاعة إله كما عند اليونان وسموا إله السماء جوبتر وإله الحرب مارس وإله الشجاعة هركوليس، وهو ما يسمى عند اليونان هركليس، وقد قبسوا أيضاً بعض أسماء آلهتهم وخواصها من المصريين القدماء، فعندهم ايزيس إلهة القمر واوزيريس إله الزراعة ومراميس إله الشفاء، وكلها أسماء مصرية لآلهة مصرية. وإن الأرباب قد تعددت عند الرومان جداً فلكل مظهر من مظاهر الحياة رب، ولكل قوة فى الإنسان رب، فعندما يولد الطفل يأتيه رب يعلمه النطق، وربة تعلمه الشرب، وأخرى تقوى عظامه، وربان يرافقانه إلى المدرسة، وآخران يرجعان به. ويعتقدون أن هناك أربابا للمدينة، وللكتابة وللجبل، ولكل نهر، ولكل نبع، ولكل شجرة رب خاص، ولقد قال الكاتب اللاتينى بترون فى إحدى قصصه على لسان امرأة صالحة: «إن بلادنا غاصة بالأرباب، بحيث يسهل عليك أن تلقى فيها ربا من أن تصادف رجلا».

٢ — ولقد أتى عهد على الرومان كانوا يعبدون فيه تلك الآلهة المتعددة من غير أن يتخذوا لها تماثيل بل كانوا يعبدونها من غير تماثيل خاصة

لكل إله ، فلم يكن فى رومية فى ذلك العهد صنم . ثم اتخذوا بعد ذلك الأصنام من الخشب أولا ، ثم اتخذوها من الرخام على مثال أصنام اليونان . ولم تكن آلهتهم على صورة حية من البشرية كآلهة اليونان فلم يصفوها بما يتصف به البشر من تحاب وتباغض وتقاتل كاليونان . ولم يفرضوا أن بين الأرباب صهرا أو نسباً وأن لكل إله تاريخا يبتدى من مولده بل كل ماينحلونه للرب من أربابهم أنه يسيطر على قوة من قوى الطبيعة ، ويعمل للناس الخير والشر على ما يحب ويريد .

٣ — ولقد كان الرومان يؤمنون بالطيرة أو الفأل فيذهبون إلى أن الأرباب يعرفون ويرسلون للناس آيات يدركونها فيستنصح الرومانى الأرباب قبل أن يشرع فى عمل ، فإذا أراد الحاكم عملا يجمع لديه مجلساً ينظر الى الطيور السائرة ، فإذا كانت فيها اشارة موافقة يدركون أن الأرباب استحسنت المشروع ، وإلا كان معناه أنهم غير راضين عنه .

ويزعمون أنه كثيراً ما يرسل الأرباب آياتهم من غير أن يسألوا ، ويزعمون أنه قد ظهر نجم ذو ذنب يوم موت قيصر فكان اشارة نعيه .

ولقد كان الرومان يقدسون الأمبراطرة ، ويقيمون المحاريب .

ما يشتمل عليه الكتاب

٨٨ - عقيدة كونفوشيوس - ربطه بين حكم السماء ، والأرواح وأرواح الآباء ، اعتقادهم أن حكم الكواكب يوجب العدل فى الرعية - ٩٠ - عبادتهم القوى المسيطرة - مآل الأرواح بعد الموت .

٩١ - آراؤه فى الأخلاق :

٩١ - تأثر الأحداث الكونية بأخلاق الناس عنده مع الصينيين - ٩٢ - الإنسان مفطور على الخير بحكم انسجامه مع الكون والأرواح - ٩٣ - الرحمة أخص مايجب أن يسود الناس - قوانين الأخلاق لا تنفصل عن السياسة عند قدماء أهل الصين ٩٤ - اضطراب الأخلاق - ومحاولة كونفوشيوس الإصلاح - ٩٥ - أول أسسه تعيين معانى الألفاظ والأسماء وتوضيح معنى ذلك ، وصلته بالسياسة والأخلاق ٩٦ - عنايته بالألفاظ لمعرفة الحق ، ومراتب معرفة الحق - ٩٧ - المعرفة مقصورة على دراسة الأشياء ، لا على دراسة الغاية من الخلق والتكوين -٩٨- طلب الفضيلة من كمال الإنسان ، والموازنة بين ذلك الرأى وفلسفة كانت الألمانى ٩٩ - قد يغالط الإنسان الفطرة وعلاج ذلك - ١٠٠ - مراقبة النفس - ١٠١ - دعوته إلى احترام الآباء واعتباره مسلكا من مسالك الدعوة إلى الفضيلة ١٠٢ - بقية مسالك الدعوة إلى الفضيلة - ١٠٣ - اختلاطه بالناس لإصلاحهم ، واختلافه عن مذهب الطاوية الذى يدعو إلى الانزواء .

١٠٤ - آراؤه فى السياسة :

١٠٤ - السياسة الحكيمة تقوم على الأخلاق - ١٠٥ - الساسة يؤثرون بأخلاقهم أكثر مما يؤثرون بقوانينهم -١٠٦- أشد دعائم الحكم ثقة الرعية - ١٠٧ - اختيار الصالحين للعمل يجذب ثقة الرعية - ١٠٨ - يجب على ذوى الأخلاق الصحيحة أن يتولوا الولايات ، ولكن عليهم أن يتعرفوا ما يؤهلهم فى ذات أنفسهم للحكم ١٠٩ - الإخلاص فى أداء الواجب هو أول مؤهل - ١١٠ - وجوب اعتزال المنصب إذا كانت الحكومة غير صالحة - وارتباط قوة الأمة بأخلاق حكامها - كلمة مجملة فى فلسفته .

١١٢ - وثنية اليونان وتعدد أربابهم ، وتماثيلهم

١١٤ - وثنية الرومان ، وصلتها بعقائد المصريين .